

منتدى مكتبة الاسكندرية

البحر



# البحر السعيد

رئيسي

Bibliotheca Alexandrina  
0016524

8

دار الآداب

البيركامو

# الموت السعيد

رواية

ترجمة: عناية طرجمياريين

منشورات دار الآداب - بيروت

القِسم الأول

الموت الطبيعي

## الفصل الأول

كانت الساعة العاشرة صباحاً ، وكان باتريس مرسو يسير بخطى منتظمة نحو دائرة زغرو . في هذه الساعة كانت الممرضة قد خرجت الى السوق ، وكانت الدارة مقفرة . كان ذلك في نيسان ، في صبيحة ربيعية جميلة متألثة وباردة ، ذات زرق صافية ومثلجة ، وشمس ساطعة باهرة ولكنها من غير حرارة . امام الدارة ، وبين الصنوبرات التي كانت تغطي الكتبان ، كانت اشعة صافية تسيل على الجذوع . كانت الطريق مقفرة ، وكانت تصعد قليلا . وكان مرسو يحمل حقيبة بيده ويتقدم في هالة هذا الصباح العالمي مخترقاً صوت خطاه الجفاف على الطريق البارد وصرير قبضة حقيبته المنتظم .

قبل الدارة بمسافة قصيرة ، كانت الطريق تنفتح على ساحة صغيرة مليئة بالمقاعد والحدائق . وكانت نباتات ابرة الراعي الباكورية الحمراء وسط الاصبار الرمادية ، وزرقة السماء وجدران السور المطلية بالكلس ، كان ذلك كله من الغضاضة والطفولة بحيث جعل مرسو يتوقف لحظة قبل ان يستأنف الطريق الذي كان ينحدر من الساحة نحو دائرة زغرو . توقف امام العتبة ولبس قفازيه ، وفتح الباب الذي كان العاجز قد تركه مفتوحاً واغلقه بالطبع . وتقدم في الممر حتى إذا بلغ الباب الثالث الى اليسار دق عليه ودخل . كان زغرو قابلاً هناك ، على مقعد ، وعلى جدعات ساقية غطاء ، امام المدفأة ، تماماً في المكان الذي كان مرسو يحتله ليومين مضياً . كان يقرأ ، وكان كتابه يستقر على غطاءه بينما كان يحدق بعينيه المستديرتين اللتين لم تكونا تنمان عن اية دهشة ، بمرسو الواقف الآن امام الباب المغلق . كانت ستائر النوافذ قد سحبت وكانت تستقر

على الارض وعلى الاثاث وعلى زاوية الاشياء برك من الشمس . وخلف النوافذ ،  
كان الصباح يضعك على الارض المذهبة والباردة . وكان فرح كبير مثلج ،  
وصرخات عصافير ثاقبة ذات صوت غير واثق وفيض من نور لا هوادة فيه ،  
تضفي كلها على الصبيحة وجهاً من البراءة والحقيقة . كان مرسو قد توقف وأحس  
بجراحة العرقفة الخائفة تأخذ بخناقها واذنيه ، فبالرغم من تبديل الطقس ، كان  
زغرو قد اشعل ناراً لاهبة ، وكان مرسو يحس بدمه يصعد حتى صدغيه ويضرب  
اطراف اذنيه . وكان الآخر ، صامتاً ما يزال ، يتابعه بعينيه . ومشى باتريس  
نحو الصندوق من الناحية الاخرى للدقأة ، ومن غير ان يلقي نظره على العاجز  
وضع حقيبته على الطاولة . واذ وصل هنا ، احس بارتعاش خفي عند عرقوبيه .  
فتوقف ووضع في فمه لفافسة اشعلها بطريقة خرقاء بسبب يديه المقفرتين .  
وسمع حركة خفيفة وراءه . التفت واللفافسة بعد في شفتيه . كان زغرو ما  
يزال ينظر اليه ، ولكنه كان قد اغلق اللحظة كتابه . وبينما كان مرسو يحس  
بالنار تلهب ركبتيه حتى الألم ، كان يقرأ العنوان مقلوباً « رجل البلاط »  
لبلتازار غراسيان . وانحنى من غير تردد على الصندوق وفتحه . كان المسدس  
يلمع بجميع منحنياته ، سواداً على يياض ، كقط معتنى به . وكان مرسو ما يزال  
يمسك برسالة زغرو وقد امسكها بيده اليسرى والمسدس باليمنى . وبعد تردد ،  
دس السلاح تحت ذراعه اليسرى وفتح الرسالة . كانت تحتوي على صفحة واحدة  
من ورق كبير القطع مغطاة ببعض الاسطر فقط بخط زغرو الكبير المقرن :

« انني لا اقتل الا نصف انسان . وبودي ان لا يحفظ احد علي ضغينة من  
ذلك وان يجد في صندوق الصغير اكثر كثيراً مما يلزم للتعويض على اولئك الذين  
خدموني حتى الآن ، بالاضافة الى ذلك ، فان بي رغبة في ان يكرس لتمسين  
نظام المحكومين بالاعدام . ولكني اشعر ان ما اطلبه كثير . »

طوى مرسو الرسالة وهو منقبض . وفي تلك اللحظة ، اتى دخان سيكارتته  
يخزّ عينيه بينما كان قليل من الرماد يتساقط على المغلف . ونفض الورقة ، ووضعها

بشكل بارز على الطاولة، واستدار ناحية زغرو . وكان هذا ينظر اللحظة المغلغف بينما ظلت يدها القصيرتان العَضَلتان تحيطان بالكتاب . وانحنى مرسو وادار مفتاح الصندوق واخذ حزمة الاوراق التي لم يكن يُرى منها سوى حافتها من خلال غلافها المصنوع من ورق جريدة . وفيما كان سلاحه تحت ذراعه ملاً بيد واحدة حقيبته بانتظام. كان هناك اقل من عشرين رزمة من فئة المئة . وايقن مرسو انه كان قد أحضر حقيبة اكبر مما يجب . وترك في الصندوق حزمة بمئة ورقة . واذ أغلق حقيبته ، ورمى لفافته التي لم يستهلك سوى نصفها في النار ، امسك المسدس بيده اليمنى واقترب من العاجز .

كان زغرو ينظر الآن الى النافذة ، وُسمعت سيارة تمر برفق امام الباب ، يرافقها صوت مضغ خفيف . وكان زغرو ، من غير ان يتحرك ، يبدو وكأنه يتأمل الجمال اللانساني كله لهذا الصباح النيساني . وحين احس فوهة المسدس على صدغه الايمن ، لم يحول عينيه . ولكن باتريس الذي كان ينظر اليه رأى عينيه تمتلئان بالدموع . وكان هو الذي اغلق عينيه . تراجع خطوة الى الوراء واطلق . ظل لحظة مستندا الى الجدار وعيناه ما تزالان معلقتين . فاحس ان دمه ما فتيه يخفق عند اذنيه . ونظر ، كان الرأس قد سقط على الكتف اليسرى والجسم لم يكسد ينحني ، حتى ان زغرو لم يكن يُرى بعد ، وانما كان يُرى فحسب جرح هائل في تضاريس دماغه من عظم ودم . واخذ مرسو يرتعش ، واستدار حول المقعد وتلمس اليد اليمنى فجعلها تمسك بالمسدس ورفعها الى مستوى الصدغ ثم تركها تسقط . سقط المسدس على ذراع المقعد ومن ثم على ركبتي زغرو . وفي هذه الحركة لاحظ مرسو فم العاجز وذقنه . كان يحمل التعبير الرصين والحزين نفسه اذ كان ينظر الى النافذة . وفي هذه اللحظة ، انبعث صوت بوق حاد امام الباب . ومرة اخرى ، سُمع النداء اللاحقيني . ولم يتحرك مرسو الذي كان ما يزال منحنيًا على المقعد . وانبأ انطلاق سيارة برحيل الجزائر . وأخذ مرسو حقيبته ، وفتح الباب الذي كانت قبضته تلمع تحت شعاع شمسي ، فخرج خافق الرأس جاف اللسان ، واجتاز باب الدخول ، ومضى بخطى كبيرة . لم يكن هناك

أحد ، ما عدا فريق من الأولاد عند زاوية الساحة الصغيرة . وابتعد . وحين  
بلغ الساحة ، احس فجأة بالبرد فارتمش تحت ساترته الخفيفة . وقد عطس  
مرتين فامتلاً الوادي الصغير باصداً واضحة ، ساخرة ، كان بلور السماء يرتفع بها  
رويداً رويداً . وبالرغم من انه كان يترنح قليلاً ، فقد توقف وتنفس بقوة . ومن  
السماء الزرقاء كانت تتساقط ملايين الابتسامات الصغيرة البيضاء . وكانت  
تلعب على الأوراق التي كانت ماتزال مخصلة بالمطر على 'فليس المرات الرطب' ،  
وتنداح نحو البيوت ذات القرميد الدموي الغض ، وتصعد بمنحة نحو بحيرات  
الهواء والشمس حيث كانت تقيض الساعة . وكان هدير ناعم ينبعث من  
طائرة صغيرة كانت تبهر في الاعالي . وفي تفتح الهواء هذا وخصوبة السماء  
تلك ، كان يبدو ان مهمة الانسان الوحيدة تكمن في ان يعيش ، وان يكون  
سميداً . كان كل شيء يصمت في كيان مرسو . وهزته عطسة آتية فاحس بما  
يشبه حمى . واذا ذلك هرب من دون ان ينظر حوله يلفه صرير حقيبته ووقع  
خطاه . وحين وصل الى منزله ، وضع حقيبته في زاوية ، فتمدد ونام حتى  
منتصف الاصيل .



## الفصل الثاني

كان الصيف يلاً المرفأ بالصيحات وبالشمس . وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف . وكان النهار يتفتح عند منتصفه ليسحق الارصفة بكل ثقل حرارته . وامام عنابر غرفة التجارة في مدينة الجزائر، كانت « سفن » ذات هياكل سوداء ومداخن حمراء تشحن اكياس قمح . وكان عطرها القباري الخفيف يختلط بروائح القطران الكثيفة التي كانت شمس حارة تفتتحها . وامام كوخ صغير تنبعث منه رائحة الدهان وشراب الانيسون، كان رجال يشربون وكان يهلواتات عرب يرتدون سراويل قصيرة حمراء يديرون ويقلبون اجسادهم على البلاط الملتهب امام البحر، حيث تطفز الاشعة، ومن غير ان ينظروا اليهم . وكان عمال الارصفة الذين يحملون الأكياس يدلفون على اللوحين المطاطين اللذين كانا يصعدان من الرصيف الى مرفأ السفن الشاحنة . واذ يصلون الى اعلى ، مقطوعين فجأة في السماء وعلى الجون ، بين الروافع والصواري ، كانوا يتوقفون لحظة مبهوتين تجاه السماء ، تلتصع عيونهم في الوجه المغطى بطينية بيضاء من العرق والغبار ، قبل ان يندفعوا كالعميان في قعر السفينة ، ذات روائح الدم الساخن . وفي الهواء الملتهب ، زارت صفارة زئيراً متصلاً .

وفجأة توقف الرجال على اللوح متبلبلين . ذلك ان احدهم كان قد سقط بين الرافدات التي كانت من التقارب بحيث تكفي لامساكه . ولكن ذراعه التوت خلفه ، فانسحقت تحت عبء الكيس الهائل ، فكان يصرخ من الألم . في هذه اللحظة ، خرج باتريس مرسو من مكتبه . وعلى عتبة الباب ، قطع عليه الصيف تنفّسه ، فتنشق بملء فمه المفتوح بخار القطران الذي كان

يجرح حلقه . وتوقف امام العمال . كانوا قد استخرجوا الجريح ، فاذا هو منقلب على الالواح المغبرة ، وقد ابيضت شفتاه من الالم وتدلّت ذراعه المكسورة فوق مرفقه . وكانت شظية عظم قد اخترقت اللحم في جرح كربه كان الدم يسيل منه . وكانت قطرات الدم السائلة على طول الذراع تتساقط ، واحدة إثر الأخرى ، على الاحجار الملتهية وهي تحدث صريراً خفيفاً يرقع منه بخار . كان مرسو يتأمل ، جامداً ، هذا الدم عندما امسك احدهم بذراعه . كان هو « ايمانويل » صبي السباق . وكان يدلّه على شاحنة كانت تتقدم نحوهم وسط جلجلة السلاسل والانفجارات . « هل نلحق بها ؟ »

وركض باتريس . لكن الشاحنة تجاوزتها . وفي الحال ، اندفعا اثرها ، غارقين في خضم الضجيج والغبار ، لاهثين وأعميين ، ولكن على قدر من الصحو يكفيها ليحسا انها محمولان باندفاع الجري الجامح في ايقاع الروافع والآلات المجنون ، مصحو بين برقص الصواري عند الأفق وترنح هياكل السفن المبقعة التي كاثا يحاذيانها . وتعلق مرسو اولاً ، وهو واثق من قوته وخفته ، وقفز على الطائر . وساعد ايمانويل لكي يجلس متدلي الساقين . ووسط الغبار الابيض والطباشيري ، والجو الحائق المضيء الذي كان يهبط من السماء ، والشمس والديكور الخيالي الرحب للرفأ المتليء بالصواري والمرافع السوداء ، انطلقت الشاحنة مبتعدة بكل سرعتها وهي تقفز بمرسو و ايمانويل على بلاط المرفأ اللامتساوي ، فكانا يضحكان حتى انقطاع النفس ، في دواز الدم كله .

حين وصلت الشاحنة الى بلكور ، نزل مرسو مع ايمانويل الذي كان يغني . كان يغني بصوت عال وناشز .

وكان يقول لمرسو :

— انك تفهم . هو شيء ما يصعد في الصدر عندما اكون مسرورا ، عندما استحم .

كان ذلك صحيحاً . فان ايمانويل كان يعني وهو يسبح ، وكان صوته الذي يبح من الحصر فاخنتق ازاء البحر ، بوقع حركات ذراعيه القصيرتين العضلتين . وسلكا طريق ليون . كان مرسو يمشي بخطى واسعة ، فارح الطول ، مؤرجحاً كتفيه العريضتين العضلتين . وفي طريقته بوضع قدمه على الرصيف الذي سيجتازه ، وانزلاق جنبيه لتفادي الحشد الذي كان ، في بعض اللحظات يحيط به ، كان المرء يحس انه امام جسد فتي وقوي بشكل غريب ، قادر على ان يحمل صاحبه الى اقصى درجات الفرح الجسدي . واذا ما استراح ، فقد كان يريح جسده على جنب واحد ، مع تكلف للمرونة طفيف ، على غرار رجل كان قد تعلم من الرياضة رشاقة الجسد . كانت عيناه تلمعان تحت قوسي حاجبيه البارزين قليلاً . وبينما كان يتحدث مع ايمانويل ، كان يشد على ياقته بحركة آلية ، وبرعشة متشنجة لشفتيه اللتويتين المرتجفتين ، لكي تكشف عنقه . ودلغا الى مطعمها وجلسا ثم اكلا بصمت . كان الجو رطباً في الظل . وكان في المطعم ذباب واصطفاق صحون واحاديث . وقد تقدم نحوها المعلم «سيليست» : كان طويلًا ومشوربًا ، وكان يحك بطنه فوق مريوله الذي كان يسقطه فيما بعد . قال ايمانويل :

— كيف الحال ؟

فيقول سيليست :

— كالشيوخ .

ودار الحديث . وكان سيليست و ايمانويل يتبادلان عبارات من مثل : « اوه ايها الزميل » و ربتات على الكتف . وكان سيليست يقول :

— « الشيوخ ، اترى ، انهم بلهاء . يقولون ان الرجل الحقيقي هو من كان في الخمسين . ولكنهم يقولون ذلك لأنهم في حوالى الخمسين . كان لي صاحب تنحصر سعادته بانبته . كانا يخرجان معاً . وكانا يسرقان في الانفاق . وكانا يذهبان الى الكازينو . وكان صاحبي يقول : لماذا تريدني ان اذهب مع جميع هؤلاء

الشيخ ؟ انهم يروون لي كل يوم انهم تناولوا مسهلاً، وانهم يعانون من كبدهم .  
فالافضل ان اذهب مع ابني . وحين يعلق يوماً بفتاة ما ، أنظاها رباتي لا أرى  
شيئاً وأصعد في قطار . الى اللقاء وشكراً . انني سعيد، سعيد جداً . . كان  
ايمانويل يضحك . قال سيليست :

.. بالطبع ، صحيح انه لم يكن مرجعاً عظيماً ولكنني كنت احبه كثيراً ..  
وتوجه الى مرسو قائلاً :

– ثم انني افضل هذا على صاحب اعرفه . عندما كان ينجح ، كان  
يحدثني وهو يرفع رأسه ويقوم بحركات صغيرة . اما الآن ، فهو اقل زهواً ،  
لقد اضاع كل شيء .

قال مرسو :

– يستحق ذلك .

– اوه ا يجب ان لا يكون المرء مسرفاً في الحياة . لقد سعد بايامه ، وكان على  
حق .. لقد كان لديه تسعة آلاف فرنك . آه لو كنت مكانه !

قال ايمانويل :

– ما كان عساک تفعل ؟

– كنت اشتريت بيتاً ريفياً . ووضعت قليلاً من الدبق على السرة وعلماً .  
وهكذا سأنتظر لأرى من اين تأتي الريح .

كان مرسو يأكل بهدوء ، الى ان بدأ ايمانويل يقصّ على المعلم معركة الشهيرة  
في المارن .

– لقد جعلونا ، نحن الزواوين ، قنّاصة .

قال مرسو بوداعة :

— إنك تضجرتنا .

— لقد قال القائد فيها : «هجوماً» او كنا بعد ذلك نهبط . كان ذلك شبيهاً بوهدي ذي اشجار . وكان قد قال لنا بان نطلق ، ولكنه لم يكن امامنا احد . وعندها مشينا ، الى الامام هكذا . ثم فجأة ، بدأت الرشاشات تطلق نيرانها . وتساقطنا بعضنا فوق بعض . كان هناك عدد كبير من الجرحى والاموات ، الى حد ان الدم المنساب في اعماق الوادي كان يكفي لمبوره في قارب . وكان هناك من يصرخ : «ماما ! كم كان ذلك فظيماً» .

نهض مرسو ، وعقد عقدة بمنشفته . وذهب المعلم يسجل فطوره بالطبشورة خلف باب المطبخ . كان هذا هو سجل حساباته . وعندما كان يحدث اي احتجاج ، كان يخرج الباب من مفاصله ويأتي بالحسابات على ظهره . وفي احدي الزوايا ، كان «رونيه» ، ابن المعلم ، يأكل بيضة برشت . قال ايمانويل :  
— يا للسكين ! انه مصدرور !

وكان ذلك صحيحاً . فان رونيه غالباً ما كان صامتاً ورضيناً . لم يكن شديد النحافة . ولكن نظره كان براقاً في تلك اللحظة ، كان احد الزبائن يشرح له ان السل «يشفي مع الوقت والاحتياطات» . كان يوافق ويحجب برزاقه بين لقمتين . وجاء مرسو يرتفق المشرب على مقربة منه ليشرب قهوة . كان الآخر يتابع : «.. الم تعرف «جان بيريز» صاحب شركة الفااز ؟ لقد مات . لم يكن يشكو سوى رئة مريضة . ولكنه اراد ان يغادر المستشفى الى بيته . وهناك كانت زوجته . وزوجته كانت حضاناً ، اما هو ، فان المرض هو الذي كان قد احاله هكذا . انت تفهم . كان دائماً يعتليها . اما هي فلم تكن تريد . ولكنه كان فظيماً . وهكذا فان مرتين او ثلاثاً كل يوم كانت كافية

لأن تقتل رجلاً مريضاً .

وتوقف رونه عن الطعام ، وكانت قطعة من الخبز ما تزال بين أسنانه .  
كان يحدق في الرجل . وقال أخيراً :

– أجل ان الألم يأتي بسرعة . ولكن ذهابه يحتاج الى وقت .

وكتب مرسو اسمه بإصبعه على المصفاة المغطاة بالبخار . ورف بعينه . بين هذا  
المصدور الهاديء وبين ايبانويل المتخيم بالأغاني ، كانت حياته تتأرجح كل يوم في  
روائح القهوة والقطران ، منفصلة عن ذاته وعن اهتمامه ، غريبة عن قلبه وعن حقيقته .  
فالأشياء ذاتها ، التي كان يمكن لها في مناسبات أخرى ، ان تثير حماسه ، كان  
يصمت عنها ما دام يعيشها ، حتى اللحظة التي يجد فيها نفسه من جديد في غرفته .  
فيضع كل قوته وحذره ليطفئ شعلة الحياة التي تتأجج فيه .

كان المعلم يقول :

– اسمع يا مرسو . انت المتعلم تقول هذا .

قال باتريس :

– نعم . كفى . سوف تتذكر ذلك .

– اوه : انك تبدو نشيطاً ، هذا الصباح !

ابتسم مرسو ، واذا غادر المطعم ، اجتاز الطريق وصعد الى غرفته . كانت  
تقع فوق ملحمة للخيل . كان وهو منحني على شرفته ، يشم رائحة الدم ويستطيع  
ان يقرأ اللافتة . « الى اشرف مكسب للانسان » . تمدد على سريره ، واشعل  
لغافة ثم نام .

كان مرسو يعيش في الغرفة التي كانت تسكنها امه . كانا قد سكنا طويلاً في  
هذه الشقة الصغيرة المؤلفة من ثلاث غرف . واذا اصبح وحيداً ، اجتر مرسو غرفتين  
لبراميلي من اصدقائه كان يعيش مع اخته ، وكان قد احتفظ لنفسه بافضل

غرفة . كانت امه قد توفيت في الخامسة والستين من عمرها . كانت جميلة ، وبسبب ذلك كانت تعتقد ان بإمكانها ان تكون مغناجة وان تعيش برخاء وان تلعب . واذا ناهزت الاربعين ، ادركها مرض مريع ، فتجردت من اثوابها ومن زينتها ، واقتصرت على ارتداء قمصان المرضى ، مشوهة الوجهه بانتفاخات فظيعة ، مسمرة تقريبا بسبب ساقها المورمتين الحاملتين ، واخيراً نصف عمياء تتخبط يحنون في شقة بلا الوان كانت تتركها للأهمال . وكانت الضربة فجائية وحاسمة . لقد كانت مصابة بالسكري الذي كانت قد اهملته وزادته غنى بحياتها اللامبالية . ولقد كان هو مجبراً على ان يوقف دروسه وعلى ان يعمل . وحتى موت امه ، كان ما يزال يتابع القراءة والتفكير . وطوال عشر سنوات ، تحملت المريضة هذه الحياة . وكان هذا التعذيب قد استمر طويلاً الى حد جعل الذين يحيطون بها يعتادون على مرضها وينسون ان بإمكانها ان تنهار بسبب اصابتها الخطرة تلك . وماتت ذات يوم . وفي الحي ، كان مرسوم موضع رثاء . كانوا يتوقعون الكثير منه عند الدفن . كانوا يتذكرون حب الابن الكبير لأمه . وكانوا يستحلفون الاقرباء البعيدين الا يبكوا لكي لا يحس باقريس بألمه يكبر . كانوا يبتهلون اليهم ان يحموه وان يتكرسوا له . اما هو ، فقد ارتدى افضل ما امكنه واخذ يتأمل الترتيبات ، وقبعتنه بيده . وقد رافق الموكب ، وحضر المراسم الدينية ورمى قبضة التراب وتقبل التعازي . مرة واحدة فقط اندهش وعبر عن استيائه من قلة السيارات المخصصة للضيوف . وكان هذا كل شيء . وفي اليوم التالي ، كان بالامكان رؤية هذا الاعلان على احدى نوافذ الشقة : « للايحار » . وهو الآن يعيش في غرفة امه . في الماضي ، كان للفقر بالقرب من امه نكهة عنذوبة . فعندما كانا يلتقيان في المساء ويأكلان بصمت حول قنديل الكاز ، كانت سعادة خفية تكمن في هذه البساطة وهذا الحصن .



كان الحمي من حولها صامتاً . وكان مرسو ينظر الى فم امه التعب وبتسم . وكانت تبتم هي ايضاً ، فكان يعود الى الاكل . وكان القنديل يدخن قليلاً فتصلحه امه بالحركة المنهوكه ذاتها ، الذراع اليمنى وحدها ممدودة مرتدة الجسم الى الخلف . وكانت تقول :

— الست جائعاً بعد ؟ فيجيبها : « لا »

كان يدخن او يقرأ . في الحالة الاولى كانت امه تقول :

— بعد ا

وفي الحالة الثانية :

— اقرب من القنديل ، انك ستلف نظرك .

والآن ، على النقيض ، فان الفقر في الوحدة كانت بؤساً فظيماً . وحين كان مرسو يفكر بمحزن في الفقيده ، كانت شففته في الواقع ترتد اليه . كانت باستطاعته ، ان يسكن بطريقة اكثر رفاهية . ولكنه كان متعلقاً بهذه الشقة وبرائحة الفقر فيها . هنا ، كان على الاقل ، يلتقي بما قد كانه . وفي حياة كان يسعى فيها الى ان ينمحي ، كانت هذه المهابة القدرة الصابرة تتيح له ان يعود الى ذاته في ساعات الحزن والاسف . كان قد ترك على الباب قصاصة من ورق مقوى رمادي مهدب الطرف . كانت امه قد كتبت عليه اسمها بالقلم الأزرق ، وكان قد احتفظ بالسرير النحاسي القديم ، المغطى بالحريز وصوره جده بلحيته الصغيرة وعينيه الصافيتين الجامدتين . وكان على المدفأة تماثيل لرعاة وراعيات يحيطون بساعة قديمة معطلة وقنديل كازل لم يكن يشعله قط تقريباً . ولم يكن الديكور المريب لكراسي القش المحوقة قليلاً وللخزانة ذات المرآة المصفرة ولطاولة الزينة الفاقدة احدى الزوايا ، لم يكن لهذا كله وجود بالنسبة

له لأن العادة كانت قد محت كل شيء . كان يتجول في ظل شقة لا تكلفه اي جهد . اما في غرفة جديدة ، فقد كان عليه ان يعتمد على الجديد ، وان يقاوم فيها ايضاً . وكان يريد ان يقلص المساحة التي يمنحها للعالم وان ينام حتى 'يستهلك كل شيء . وكانت هذه الغرفة تخدّمه لتحقيق هذا الهدف ؛ فقد كانت تطل من جهة على الطريق ومن جهة اخرى على سطيحة مغطاة دائماً بالفسيل . وفيما وراءها كانت تطل على حدائق صغيرة للبرتقال مرصوفة بين جدر عالية . في بعض الاحيان ، في ليالي الصيف ، كان يترك الغرفة يغمرها الظلام فيفتح النافذة على السطيحة والحدائق المظلمة . من الليل واليه ، كان اريج البرتقال يتصاعد قوياً جداً ويلفه بغلالاته الشفافة . في كل ليلة من ليالي الصيف ، كانت غرفته وكان هو نفسه يفرقان في هذا العطر اللطيف والمكثف في آن واحد . وكما لو انه كان ميتاً لأيام طويلة ، كان يفتح نافذته لأول مرة على الحياة .

استيقظ وفمه مليء بالنعاس ومغطى بالعرق . كان الوقت متأخراً جداً . سرح شعره وهبط مسرعاً وقفز في ترام . في الساعة الثانية وخمس دقائق كان في مكتبه . كان يعمل في غرفة كبيرة غطيت جدرانها الأربعة باربعمئة واربع عشر مشكاة كانت الاضبارات مكدّسة فيها . ولم تكن الغرفة قدرة ولا كريمة ، ولكنها كانت توحى في كل ساعة من ساعات النهار بمرقده من شأنها ان 'تبلي الساعات الميتة . كان مرسو يحقق في وثائق شحن البضائع ، ويترجم قوائم مؤونات المراكب الانكليزية . ومن الساعة الثالثة حتى الرابعة كان يستقبل الزبائن الراغبين بشحن الطرود . كان قد طلب هذا العمل الذي لم يكن في الواقع يروق له . ولكنه في اول الأمر كان قد وجد فيه باباً للخروج الى الحياة . لقد كان يجد فيه وجوهاً حية ومرتابين وممرأ ، ونسمة يحس فيها اخيراً بقلبه يخفق . وهكذا كان يفلت من وجوه ضاربات الآلة الكاتبة الثلاث

ومن مدير المكتب السيد لانغوا . احدى الضاربات كانت على قدر لا بأس به من الجمال . وكانت متزوجة منذ فترة وجيزة . اما الأخرى ، فكانت تعيش مع امها ، والثالثة كانت سيدة مسنة قوية ومحترمة كان مرسو يحب حديثها المزهر والتحفظ الذي كانت تبديه حول موضوع : « مصائبه » على حد تعبير لانغوا . وكان لهذا الأخير مواقف حرجة ، كانت السيدة هريون تنتصر فيها عليه دائماً . كانت تحترق لانغوا بسبب العرق الذي كان يلتصق بسروره وبرد فيه ويسبب الذعر الذي كان يعتره امام المدير واهياناً على التلفون وهو يسمع صوت محام او شخصية مرموقة . وكان المسكين يحاول عبثاً ان يهدي المرأة المسنة او ان يحظى على رضاها . وهذا المساء كان يترنح وسط المكتب . قال :

– « اليس صحيحاً ، يا سيدة هريون انك تجدينني خفيف الروح ؟ »

كان مرسو يترجم كلمة « نبات » ويتأمل فوق رأسه المصباح وكمة المصباح المصنوع من الكرتون الاخضر المثني . وكانت تجاهه روزنامة ذات الوان صارخة تحمل صورة « صفح تيرنوفاس Terreneuvas » . وكان مصفوقاً على طاولة مُبللة ونشافة ودواة ومسطرة . وكانت نوافذه تطل على كومسات كبيرة من الاخشاب مجلوبة من الترويج بواسطة سفن شاحنة صفراء وبيضاء . كان يرهف السمع . خلف الحائط ، كانت الحياة تنفس تنفساً كبيراً صامتاً وعميقاً على البحر وعلى المرفأ . وحرره جرس الساعة السادسة ، البعيد جداً منه والقريب جداً في آن واحد . كان ذلك يوم سبت .

حين عاد الى منزله ، استلقى ونام حتى ساعة العشاء . قلب لنفسه بيضاً واكله رأساً من الصحن ( من غير خبز لأنه كان قد نسي ان يشتري خبزاً ) ثم استلقى ونام في الحال حتى صباح اليوم التالي . واستيقظ قبيل الغداء . ورتب هندامه ، هبط لياكل ؛ وحين صعد ، حل كلمتين متقاطعتين وقص بدقة اعلاناً عن املاح كروشن ألصقه في دفتر مملوء بصور الأجداد المهرجين وهم ينزلون

درجات السلام . واذ اتم ذلك ، غسل يديه ووقف على الشرفة . كان العصر رائعاً . على ان البلاط كان دهنياً . وكان الناس قليلين ومسرعين ايضاً . اما هو فقد كان يتابع بعينه كل انسان بدقة ثم يتركه بعد ان يبعد عن نظره ليعود لمارّ جديد . كانوا في بادئ الامر عائلات تنتزه ، منها عائلة من صبيين صغيرين في لباس البحارة ، البنطال تحت الركبتين ، مرتبكين في ثيابها الخشنة ، وقتاة صغيرة ذات شريطة كبيرة وردية وحذائين اسودين مبرنقين . وخلفهم كانت ام مرتدية فستاناً من الحرير الكستنائي اشبه بحيوان هائل تلفه افعى ، واب اكثر تميزاً ، ، عصاه في يده . بعد قليل مرّ شباب الحلي ، شعورهم ملتمعة وربطات عنقهم حمراء ، ستراتهم مخصورة جداً ، في صدرها منديل مطرز واحذية ذات رؤوس مربعة . كانوا يذهبون الى دور السينما ، وسط المدينة ، وكانوا يسرعون نحو الترام وهم يضحكون ضحكات عالية . بعدهم ، اقفرت الطريق شيئاً فشيئاً . كانت الافلام قد بدأت في كل مكان . وكان الحلي قد اخلي الآن للجانوتين والقطط ، وكانت السماء ، بالرغم من صفاها ، صافية ، بلا اشراق فوق اشجار التين التي كانت تحيط بالشارع . وتجاه مرسو ، اخرج بائع التبغ كرسياً امام بابه فاقتعدها وهو يستند بذراعيه على المسند . وكانت الحافلات المزدهمة منذ لحظات قد فرغت تقريباً . وفي القهوة « شي بيارو » كان الصبي يكتس النشار في القاعة الفارغة . وادار مرسو كرسيه ووضع كبايع التبغ . ودخن لفاقتين الواحدة تلو الاخرى . ودخل الغرفة من جديد فاقتطع قطعة من الشوكولا وعاد لياكلها عندالنافذة . وبعد قليل اظلمت السماء ثم انقشعت على الامر . ولكن مرور الغيوم كان قد خلق على الطريق ما يشبه وعداً بالمطر جعلها اكثر اظلاماً . عند الخامسة ، وصلت الحافلات وسط الضجيج حاملة من ملاعب الضاحية ، عناقيد من المتفرجين متعلقين على المدرجات والحواجز . اما الحافلات التالية ، فقد اعادت اللاعبين الذين كانوا يُعرفون من حقائبهم الصغيرة . كانوا يهدرون ويغنون ملء الرئتين ان ناديم لن يفنى ابداً .

كثير منهم ارسل اشارات الى مرسو . وصاح احدهم « لقد هزمنام » . فاكتفى مرسو بالقول : نعم ، وهو يهز رأسه . وتكاثرت العربات بعد ذلك . بعضها كانت قد غطت بالأزهار جوانحها وراياتها . ثم مال النهار بعض الشيء فوق السقوف ، فأصبحت السماء محمرة . ومع المساء الوليد ، انتعشت الشوارع من جديد . وكان المتزهون يعودون . كان الأولاد المتعبون يبكون او يستسلمون للجزر . في هذه اللحظة أفرغت قاعات سينما الحي في الشارع موجة من المشاهدين . وكان مرسو يجيد فيما يقوم به الشبان من حركات مصممة ومتباهية التفسير اللاواعي لفيلم المغامرات الذي كانوا قد شاهدوه . اما الذين كانوا يعودون من دور المدينة ، فقد وصلوا بعد ذلك بقليل ، كانوا اشد رصانة ، وبين الضحكات والتهريجات المقهقة كان يبرز من جديد في عيونهم وفي هيتهم نوع من الحنين لهذه الحياة ذات النمط المتألق التي كانت السينما قد فتحت لهم . ظلوا في الشارع يروحون ويغدون ، وعلى الرصيف المواجه لمرسو تكوّن اخيراً تياران : كانت قنيات الحي المسترسلات الشمر يتساقن بالاذرع فيشكلن احد التيارين ، والشباب من جهة اخرى كانوا يطلقون النكات التي كن يضحكن لها وهن يُدرن رؤوسهن . كان الشبان الرصينون يدخلون المقاهي او يشكلون على الرصيف فرقا كان الموج البشري الذي يجري يحاصرها كأنها جزر صغيرة . وما هو الشارع مضاء والمصابيح الكهربائية ، تسحب النجوم الأولى التي كانت تطلع في الليل . وتحت مرسو ، كانت الارصفة تمتد بكل حمولتها من الرجال والاضواء . وكانت المصابيح تلمع البلاط الدهني ، والحافلات ترسل لمسافات منتظمة انعكاساتها على شعر لماع او شفة رطبة وضحكة او سوار من فضة . بعد قليل ، مع الحافلات التي غدت اقل عدداً ، ومع الليل المسود فوق الاشجار والمصابيح ، فرغ الحي شيئاً فشيئاً ، واجتاز القط الاول على مهل الشارع الخالي من جديد ، وفكر مرسو بالعشاء . لقد كان يشكو الماء خفيفاً

في عنقه لأنه ظل وقتاً طويلاً مستنداً على ظهر كرسيه . وقد نزل ليشتري خبزاً وفتائر ثم أعدت طعامه وأكل . وعاد الى النافذة . كان اناس يخرجون . وكان الجو قد ترطب . وارتمش فاغلق زجاجه وعاد الى المرأة ، فوق المدفأة . ما خلا بعض الامسيات التي كان يستقبل فيها مارت او يخرج معها ومراسلته مع صديقاته في تونس ، فان حياته كلها كانت تنتظم في منظور باهت تعكسه المرأة لفرقة يتجاور فيها مصباح كاز قدر مع كسرات خبز .

قال مرسو : يوم احد آخر ينقضي .

## الفصل الثالث

عندما كان مرسو يتنزه في الشوارع ، مساء ، وكان فخوراً بان يرى الاضواء والظلال تتألق كذلك على وجه « مارت » ، كان كل شيء يبدو له سهلاً بشكل رائع ، قوته ذاتها وشجاعته . هذا الجمال الذي كانت تسكبه له كل يوم كأنها اكثر النشوات رهافة ، كان يكن لها العرفان بان تملنه امام الناس والى جانبه . ان تكون مارت تافهة ، لكان ذلك عذبة العذاب نفسه وهو يراها سعيدة في رغبات الرجال ، كان سعيداً بان يدخل هذا المساء معها الى السينما ، قبيل بدء الفيلم ، بينما كانت القاعة ملاءى تقريباً . كانت تتقدم أمامه ، تحوطها نظرات الاعجاب بوجهها المزدهر الباسم وجمالها العنيف . وكان ، وهو يمك قبعته من البديية في يده ، يشعر بارتياح خارق كأنما هو وعي داخلي لأناقته الخاصة . وقد اتخذ هيئة متعالية ورصينة وبالغ في تهذيبه ، والمحرف لكي يتيح للعامة ان تمر ، وخفض مقعد مارت قبل ان تجلس . فعل ذلك بسبب رغبة اقل بالتباهي بما كان يفعله بسبب هذا العرفان الذي كان يملأ قلبه ويفعمه حباً لجميع الكائنات وإذا كان قد اعطى العامة شيئاً مبالغاً به فلانه كذلك لم يكن يعرف كيف يعوض فرحه ولأنه كان يعبد بهذه الحركة اليومية معبوداً تلمع ابتسامته الباهرة كزيت في عينيه . وعند الاستراحة ، حين كان يجول في الصالة المغطاة بالمرايا ، فقد كان وجهه سعادته هو ما تعكسه له الجدران ، مألثة القاعة بصور رشيقة وراعشة لغامته الفارعة القائمة وابتسامة مارت المرتدية الواناً زاهية . صحيح انه كان يجب الوجه الذي كان يراه لنفسه على هذا النحو ، والقم المرتعش حول اللقافة والحمى المحسوسة في عينيه الغارقتين قليلاً ،



ولكن جمال انسان ما يعكس حقائق داخلية وعملية . وعلى وجهه يُقرأ ما يستطيع فعله ، ولو كان ذلك ثمناً للاجدوى الرائعة لوجه امرأة . كان مرسو يدرك ذلك جيداً ، مما كان يدغدغ غروره ، ويبتسم لشياطينه الخفية .

حين بلغ القاعة ، فكر انه وحده لم يكن يخرج ابداً في فترة الاستراحة ، مفضلاً التدخين والاستماع الى اسطوانات الموسيقى الخفيفة التي كانت تدار في تلك اللحظة . ولكن اللعبة ، كانت مستمرة هذا المساء ، وجميع الفرص لتمديداتها ولتجديدها كانت ملائمة . غير ان مارت ، عندما همت بالجلوس ردت سلام رجل جالساً خلفها بعدة صفوف . واذ سلم مرسو بدوره ، خيل اليه انه لاحظ ابتسامة خفيفة على زاوية شفتيه . وجلس من غير ان يتنبه الى اليد التي كانت مارت تضعها على كتفه لكي تحدته والتي كان سيتقبلها بفرح لو جاءت قبل ذلك بدقة كدليل جديد لهذا السلطان الذي كانت تعترف له به .

— من هو ؟

قالها متوقفاً ان تأتيه « من » طبيعية جداً .

— اتعرفين « هذا الرجل » .

قالت لمارت : آه . ثم سكنت .

— من هو ؟

— هل تحرص كثيراً على معرفته .

قال مرسو : لا .

والتفت قليلاً الى الورا . كان الرجل ينظر الى رقبة مارت من غير ان

يرف شيء في وجهه . كان جميلاً كفاية، ذا شفتين جميلتين شديدتي الحمرة، ولكن العينين كانتا بلا تعبير وبلا عمق . واحس مرسو بدفقات من الدم تصعد الى صدغيه . وامام نظره الذي اسودّ ، كانت الالوان البراقة لهذا الديكور المثالي الذي كان يعيش فيه منذ ساعات قد غدت فجأة ملطخة بالسخام . اية حاجة كانت به ليسمعها تتكلم . كان متأكداً من ان هذا الرجل كان قد نام مع مارت ، وما كان في نفس مرسو كالرعب ، كان تصوّر ما كان بوسع هذا الرجل ان يقوله لنفسه . كان يعرف ذلك جيداً هو الذي كان قد فكر على هذا النحو : « تستطيع دائماً ان تفاخر . وحين راودته الفكرة ان هذا الرجل ، في هذه الدقيقة نفسها ، كان يستعيد حركات معينة لمارت وطريقتها في وضع ذراعها على عينيها لحظة اللذة ، وحين فكر ان هذا الرجل ايضاً كان قد حاول ان يبعد هذه الذراع ليقراً هياج الآلهة الكثيبة الصاحب في عيني المرأة ، اذ ذاك احس مرسو ان كل شيء فيه ينهار . وبينما كان جرس السينما يعلن استئناف الفيلم ، كانت عيناه المغمضتان تمتلئان بدموع الغضب . كان ينسى مارت التي لم يسبق لها ان كانت الا ذريعة لفرحه، والتي اصبحت الآن الجسد النابض لغضبه . وظل مرسو مغلقاً عينيه فترة طويلة حتى اللحظة التي فتحها فيها على الشاشة . كانت سيارة تدهورت ، وفي صمت عميق للجوقة كلها ، ظلت احدى العجلات وحدها تدور على مهل ، جارفة في دائرتها العنيدة كل العار والحزني المنبعثين من قلب مرسو المساء . وكانت حاجة اليقين في ذاته تدفعه الى نسيان كرامته .

سألها :

– مارت ، هل كان عشيقك ؟

قالت :

– نعم . ولكن الفيلم يستهويني .

في هذا اليوم ، بدأ مرسو يتعلق بمارت ، كان قد تعرف عليها لبضعة شهور

خلت . وكان قد ذُهل بجياله وأناقته . ففي وجهها العريض قليلاً ، ولكن المتناسق ، كانت لها عينان مذهبتان بلغتا من اناقة الحضاب بحيث كانت تبدو اشبه بآلهة مرسومة الوجه بيد حاذقة . وكانت بلاهة طبيعية تلعب في عينيها فتزيد هيئتها اللامبالية الهادئة تعبيراً . وحتى الآن ، في كل مرة كان مرسو يعقد فيها مع امرأة ما اولى الحركات الملزمة ويعي الشقاء الذي يفرض على الحب والشهرة ان يتحدا بالطريقة ذاتها ، كان يفكر بالقطيعة قبل ان يكون قد ضمّ هذا الكائن بين ذراعيه . الا ان مارت كانت قد ادركته في لحظة كان فيها مرسو يتحرر من كل شيء ومن ذاته . ذاك ان وهم الحرية والاستقلال لا يدركه الا من كان لا يزال يعيش بالأمل . اما بالنسبة لمرسو ، فلم يكن لشيء آنذاك اي حساب . فعندما استرخت مارت بين ذراعيه للمرة الاولى ورأى في الملامح التي جعلها التقارب مشوشة قليلاً ، رأى الشفتين الجامدتين حتى الآن كزهرتين مرسومتين تخفقان بالحياة وتمتدان نحوه ، اذ ذاك ، لم ير المستقبل من خلال هذه المرأة ، وإنما احس بقوة رغبته كلها تركز فيها وتمتليء بهذا التجلي . وكانت الشفتان اللتان كانت تقدمها له تبدوان له رسالة من عالم بلا اهواء ، مليء باللذة ، يصيب فيه قلبه الرضى . ولقد احس ذلك كأنه المعجزة . وكان قلبه يخفق بعاطفة اوشك ان يظنها حباً . وعندما احس باللحم الريان المرن تحت اسنانه ، فائماً عضّ فيه نوعاً من الحرية الوحشية عضاً هائجاً بعد ان كان قد داعبته طويلاً بشفتيه بالذات . وغدت عشيقته في ذلك اليوم نفسه . وبعد فترة ، كان اثلافيها في الحب تاماً ، ولكنه ، وقد عمقت معرفته لها ، فانه كان قد فقد شيئاً فشيئاً حدس هذه الغرابة التي كان قد قرأها فيها والتي كان ما يزال يحاول ، وهو مائل على فهمها ، ان يبتعثها احياناً . وهكذا لم تكن مارت ، التي كانت قد الفت تحفّظ مرسو وبرودته ، لتدرك قط لماذا كان قد طلب منها ذات يوم ان تعطيه شفتيها وهما في حافلة غاصة بالناس . وكانت قد قدّمتهما له وهي مذكورة . وكان قد قبلها على هواه بادئاً بمداعبتها بشفتيه ثم عاضاً بإيها على

مهل . وكانت قد قالت له على الأثر : « ماذا دهالك ؟ » وافتر وجهه بالبسمة التي كانت تحبها: الابتسامة المقتضبة التي تحبب . فقال « احب ان أحسني قلقاً » ليدخل مجدداً في صمته . انها لم تكن تفهم كذلك قاموس باتريس . فبعد فعل الحب ، في تلك اللحظة التي يجمع فيها القلب في الجسد المحرر المسترخي ، ممتلئاً فقط بالشغف الحنون الذي نكته لكلب لطيف ، كان مرسو يقول لها باسمها : « مرحباً يا تجلر » .

كانت مارت ضاربة على الآلة الكاتبة . ولم تكن تحب مرسو . بيد انها كانت معلقة به بقدر ما كان يثير فضولها ويدغدغ غرورها . فمئذ اليوم الذي تحدث فيه ايمانويل ، وكان مرسو قد قدمه لها فقال عنه :

— « ان مرسو ، لو تعلمين ، شخصية . انه يجيء شيئاً في ذاته . ولكنه يغلفه ، من اجل ذلك يُخدع به الانسان » .

منذ ذلك اليوم اخذت تنظر اليه بفضول . فلما كان يجعلها سعيدة في الحب ، فلم تكن لتطلب منه مزيداً ، مستريحة على افضل وجه لهذا العشيق الصموت القليل الصخب الذي لم يكن يطالبها قط بشيء . وكان يأخذها حين كانت تريد طوعاً ان تأتي . الا انها كانت فقط مرتبكة بعض الشيء امام هذا الرجل الذي لم تكن تلاحظ عيبه .

غير انها فهمت ذلك المساء ، بعد خروجها من السينما ، ان شيئاً ما يستطيع ان يؤثر فيه . وصمتت طوال الامسية ثم نامت عنده . فلم يلمسها الليل كله . غير انها ، ابتداء من هذه اللحظة ، أفادت من تفوقها . لقد سبق ان قالت له : انها قد كان لها عشاق . وعرفت كيف تجد الادلة الضرورية .

وفي اليوم التالي ، وعلى غير عاداتها ، جاءت الى منزله اثر انتهاء عملها . فوجدته نائماً . فجلست عند اسفل السرير النحاسي من غير ان توقظه . كانت يرتدي قميصاً كانت اكمامه المرفوعة تكشف بياض الساعد العازل الاسمر . كانت

يتنفس بانتظام بصدرة وبطنه معاً . وكانت ثنيتان بين حاجبيه تضفيان عليه  
تمبير قوة واصرار كانت تعرفه جيداً فيه . وكانت خصلات شعره تتهدل على  
جبينه البالغ السمره الذي كان ويريد ينبض فيه . وكان يبدو ، وهو مستلق على  
كتفيه العريضتين ، وذراعه ممتدان على طول الجسد واحدى ساقيه نصف  
منثنية ، أشبه بإله متوحد عنيد ملقى ، وهو نائم ، في عالم غريب . وامام  
شفتيه الريانتين المكتنزتين بالنوم ، اشتتهه . فقد فتح في تلك اللحظة عينيه نصف  
فتحة واغلقها وقال من غير غضب :

- لا احب ان ينظر الي احد وانا نائم .

وقفزت على عنقه وقبلته . فظل جامداً .

قالت :

- اوه . يا حبيبي نزوة اخرى من نزواتك .

- لا تناديني حبيبي ، ارجوك . لقد سبق ان قلت لك ذلك .

وتمدت ملتصقة به ونظرت اليه جانبياً .

- انني اتساءل من تشبه في وضعك هذا .

رفع سرواله وادار لها ظهره . كثيراً ما كانت مارت ، في السينما ، ومع بعض  
الغرباء وفي المسرح ، معتادة على حركات مرسو وتشنجاته . والحق انه كان يجد في  
ذلك التأثير الذي كان يمارسه عليها ، غير ان هذه العادة التي كانت تدغدغ غروره  
غالباً كانت تضايقه اليوم . والتصقت بظهره ، وتلقت على بطنها وعلى صدرها حرارة  
نومه كلها . وكان المساء يهبط بسرعة كبيرة والفرقة تفرق في الظلمة . وفي داخل  
البيت كان يتصاعد بكاء اطفال قد ضربوا وفواء واصطفاق باب . وكانت مصابيح  
الشارع تضفي الشرفة . وكانت حافلات نادرة تمر . وبعد ذلك كانت رائحة  
الحي المكونة من الانيسون واللحم المشوي تتصاعد الى الغرفة هبات ثقيلة .

واحست مارت بالنعاس يستولي عليها .

قالت :

— يبدو عليك الغضب منذ البارحة . من اجل ذلك اتيت . الا تقول شيئاً ؟

وهزته . فظل مرسو جامداً . كان يراقب في الظلام، الذي غدا كثيفاً، الحنية اللامعة لهذا الموضوع تحت طاولة الزينة .

قالت مارت :

— اسمع . ان رجل البارحة قد بالفتُ في أمره . لم يكن عشيقى .

قال مرسو :

— لم يكن في الحقيقة ، لم يكن تماماً .

ولم يكن مرسو يقول شيئاً . كان يرى بوضوح الحركات والابتسامات . وقد كرز على أسنانه . ثم نهض وفتح النافذة ثم عاد وجلس على السرير . وتكورت بلصقه وأمرت يدها بين زرين من أزرار قميصه ، وداعبت صدره .

واخيراً سألها :

— كم عشيقاً عرفت ؟

— إنك تضجرتني .

ثم سكت مرسو .

قالت : — حوالى العشرة .

كان النعاس عند مرسو يستدعي التدخين .

سألها وهو يخرج علبته :

— هل اعرفهم ؟

لم يكن يرى الا بياضاً مكان وجه مارت . وكان يفكر :

« كما في الحب » .

– اجل ، تعرف بعضهم في الحى .

كانت تحك رأسها بكتفه ، وتتخذ صوت فتاة صغيرة كان دائماً يوهي عزيمته

قال لها :

– اسمعي يا صغيرتي . ( وأشعل لفاقته ) إفهميني . ستعديني بأن تقولي لي  
اسماءهم . اما بالنسبة للآخرين ، اولئك الذين لا اعرفهم ، فستعديني ايضاً ، ان  
نحن لقيناهم ، بأن تدلّيني عليهم .

فارتدت مارت الى الوراء : – آه ! لا .

زمرت سيارة بعنف تحت نوافذ الغرفة . ثم زمرت طويلاً مرة اخرى ثم  
مرتين . ورنّ جرس الترام في اعماق الليل . وعلى رخام طاولة الزينة كان المنبه  
يرسل تكتكات باردة . قال مرسو بجهد :

– انني اطلب منك ذلك لأنني اعرف نفسي ، فاذا لم اعرف ، فسيكرر  
الأمر . كلما لاقيت شخصاً سأسائل نفسي وسأتحيل . هذا هو الأمر . سيشطّ  
بي الخيال . لست ادري ان كنت تفهميني .

كانت تفهم تماماً . فذكرت الامماء . واحد فقط كان مجهولاً بالنسبة لمرسو .  
اما الأخير ، فقد كان شاباً كان يعرفه . وبه كان يفكر ، لأنه كان يعرفه جيلاً  
ومحتفى به من النساء . وما كان يثيره في فعل الحب ، للمرة الاولى على الاقل ،  
كانت هذه الصميمية الفظيعة التي كانت المرأة تتقبلها ، وان تتلقى في بطنها بطن  
مجهول . وكان يتعرف ، في هذا النوع من العفوية والبساطة والدوار ، على سلطان  
الحب المثير القدر . وهذه هي الصميمية التي كان يتصورها في بادئ الامر بين  
مارت وعشيقها . في هذه اللحظة ، جلست على حافة السرير مستندة قدمها

اليسرى على فخذهما اليمنى . وخلعت أحد حذائها ثم الآخر وتركتهما يسقطان  
أحدهما ممدداً على جنبه والآخر واقفاً على كعبه العالي . وأحسن مرسو بجلقه  
ينقبض . وكان شيء ما في معدته بتأكله .

قال وهو يبتسم :

– اهكذا كنت تفعلين مع رونييه ؟

ورفعت مارت عينها وقالت :

– ما الذي تتصوره ! انه لم يكن عشيقني الا مرة واحدة .

قال مرسو :

– آه !

– ثم انني لم اخلع حذائي .

ونفض مرسو . كان يراها مقلوبة ، مرتدية ثيابها ، على سرير شبيه بهذا  
السرير ، مستسلمة بكاملها وبلا تحفظات . وصرخ : « أغلقي فمك ! » ومشى  
نحو النافذة .

قالت مارت :

– آه يا عزيزي !

وكانت ما تزال جالسة على السرير وقدماهما عاريتان بجواربهما وعلى الارض .  
وكان مرسو مهتداً ، وهو ينظر الى لعب المصابيح على السكك الحديدية . لم  
يسبق له قط ان كان على مثل هذا القرب من مارت . واذ فهم انه في الوقت  
نفسه كان ينفتح عليها اكثر قليلاً ، كان الزهو يحرق عينيه . وعاد اليها . وبين  
السبابه المطوية والايهام أمسك جلد العنق الدافئ تحت الاذن ، وابتسم .  
– وهذا الـ«زغرو» ، من هو؟ انه الوحيد الذي لا أعرفه .



قالت مارت وهي تضحك :

– انني ما ازال أراه ، هو .

وشدّ مرسو اصابعه على الجلد .

– انه عشيقى الأول . انت تقدر . كنت صبيبة صغيرة ، وكان يكبرني قليلا . اما الآن ، فساقيه مقطوعتان . وهو يعيش وحيداً . من اجل ذلك ، أذهب احياناً لأراه . انه ذو شخصية . وثقف . فهو يقرأ دائماً . وفي تلك الايام كان تلميذاً . انه مرح جداً ، انه شخصية بالاختصار . زد على ذلك انه يقول لي مثلك . يقول لي : تعالي الى هنا ، يا تجلر .

فكتر مرسو . وترك مارت التي انقلبت على السرير وهي تغمض عينيها . بعد فترة ، جلس الى جانبها ويبحث ، وهو ينحني على شفتيها المنفرجتين ، عن دلائل الوهية الحيوانية ونسيان الم كان يعتقد انه معيب . ولكنه ترك قمها من غير ان يذهب أبعد من ذلك .

وحين رافق مارت ، حدثته عن زغرو . قالت :

– لقد حدثته عنك . قلت له ان حبيبي كان جميلاً جداً وقوياً جداً . واذ ذاك قال لي انه يود لو يتعرف عليك . وقال لي : « ان ارى جسماً جميلاً ، فهذا يساعدني على ان اتنفس جيداً . »

قال مرسو :

– انه شخص معقد آخر .

كانت مارت تريد ان تسره ، واعتقدت ان الوقت قد حان لتذكر حادثة الفيرة الصغيرة التي كانت تفكر بها ، والتي كانت تعتقد انه كان هو سببها على نحو ما .

– اوه ! انه اقل تعقيداً من صديقاتك !

قال مرسو وهو صادق التعجب :

— اية صديقات ؟

— انك تعرفهن . الصغيرتان المحقاوان ، كما تعرف .

الصغيرتان المحقاوان ، كانتا روز وكليز ؛ وهما طالبتان من تونس كان مرسو قد تعرف عليهما . ومعها فقط كان يتبادل المراسلة الوحيدة في حياته . وقد ابتسم وأخذ برقبة مارت ومشيا طويلا . كانت مارت تسكن امام ساحة العمال اليدويين . وكان الطريق طويلا ، وكان يلمع بكل نوافذه في القسم الأعلى بينما كان الأسفل ، وكله حوانيت مقفلة اسود حزينا .

— قل يا حبيبي . الاتحبتها ؟ هاتين المحقاوين الصغيرتين؟

قال مرسو :

— اوه . لا .

كانا يسيران ، ويد مرسو على رقبة مارت المغطاة بجرارة الشعر .

قالت مارت بلا تمهيد :

— انك تحبني .

واتتعش مرسو فجأة وضحك ضحكا شديداً .

— هوذا سؤال خطير جداً .

— أجب .

— ولكن في سننا ، لا يجب المرء . ان احدنا يروق للآخر ، وهذا كل شيء .  
فيا بعد ، عندما نكون شيوخاً وعاجزين ، نستطيع ان نحب . اما في سننا ،  
فنعتقد اننا نحب . هذا كل شيء .  
ويدت حزينة ، ولكنها قبلته .

قالت :

— الى اللقاء يا حبيبي .

وعاد مرسو أدراجه في الطرقات السوداء . كان يسير بسرعة ، وفيما كان يعي لعبة عضلات فخذيه على طول قماش السروال المالس ، أخذ يفكر بزغرو وبساقيه المقطوعتين؛ كانت به رغبة للتعرف عليه . وقرّر ان يطلب من مارت ان تقدمه اليه .

أحس مرسو ، في المرة الاولى التي رأى فيها زغرو ، بالغیظ . بيد ان زغرو كان قد حاول ان يخفف من وطأة الازعاج الكامن في تصوّر لقاء عشيقتي امرأة واحدة ، وبمضورها . لأجل ذلك كان قد حاول ان يجعل مرسو شريكاً وهو يعامل مارت « كفتاة طيبة » ويضحك بشدة . وظل مرسو مصدوماً . ولقد باح بذلك بعنف لمارت ما ان وجدا بمفردهما .

— انني لا أحب نصف الحصص . ان هذا يضايقني ويمعني من التفكير .  
وانني أقل حبا ايضاً لنصف الحصص التي تُفأخِر .

أجابت مارت ، ولم تكن قد فهمت :

— اوه ! انت ! لو كنا نستمع اليك .

على ان ضحكة زغرو الفتية التي كانت قد أغاظته في بادئ الامر، استرعت فيما بعد انتباهه واهتمامه . كما ان الغيرة التي أسيء تقنيها والتي كانت تقود مرسو في حكمه كانت قد اختفت عندما رأى زغرو . ونصح مارت التي كانت تذكر ، في براءة كلية ، بالوقت الذي كانت تعرّفت فيه على زغرو قائلاً :

— لا تضيعي وقتك . لا يمكن ان اكون غيوراً من شخص لا يملك ساقيه بعد . يكفي ان افكر بكما اننا الاثنين حتى أراه كدودة ضخمة عليك . انت تفهمين اذن . ان ذلك يلويني من الضحك . لا تتبعني نفسك ، يا ملاكي .

وفجأ بعد ، عاد وحده الى منزل زغرو . وكان هذا الاخير يتكلم كثيراً وبسرعة ويضحك ثم يسكت ، وكان مرسو يجس براحة تامة في الغرفة الكبيرة التي كان زغرو يقيم فيها بين كتبه ونحاسياته المراكشية ، والنار وانعكاساتها على وجه بوذا الرصين الحميري على مكتب عمله . كان يستمع الى زغرو ، وما كان يسترعي انتباهه لدى العاجز ، هو انه كان يفكر قبل ان يتكلم . واما ما تبقى من الشهوة المكبوتة والحياة المضطربة التي كانت تحيي هذا الجذع المضحك ، فقد كان كافياً لكي يمسك بمرسو ويولد فيه ، لو انه استسلم لمزيد من العفوية ، شيئاً كان يمكن ان يعتبره صداقة .

## الفصل الرابع

بعد ظهر هذا الأحد ، كان رولان زغرو ، بعد ان كان قد تكلم ومزح كثيراً ، صامتاً قرب النار في مقعده الكبير الدائر ، منبثقاً من اغطيته البيضاء . وكان مرسو ، وهو يستند الى المكتبة ، ينظر الى السماء والى القرية من خلال ستائر النوافذ الحريرية البيضاء . كان قد أتى تحت مطر خفيف ناعم ، وخوفاً من ان يصل أبكر مما ينبغي ، فقد ظل يتيه طوال ساعة في الريف . كان الجو كثيباً ، ومن غير ان يستمع الى الريح ، كان مرسو يرى مع ذلك الاشجار والأوراق وهي تتلوى بصمت في الوادي الصغير . ومرت ، من ناحية الطريق ، عربية حلاب وسط ضجيج كبير من الحديد والحشب . وفي الحال تقريباً اخذ المطر يتساقط بفزارة ويفرق النوافذ . ومع ترافق هذا الماء الشبيه بالزيت السميك على الزجاج ووقع اجوف وبعيد لحوافر الحصان الذي يبدو الآن أكثر وضوحاً من ضجيج العربية ، ووابل المطر المخنوق المستمر ، وهذا الرجل - القطرميز امام النار وصمت الغرفة ، كل ذلك كان يتخذ وجه الماضي الذي كانت كتابته الصامته تنفذ الى قلب مرسو كما نفذ الماء منذ قليل الى حذائه الرطبين والبرد الى ركبتيه المحميتين على نحو رديء بقماش رقيق . منذ لحظات مضت ، كانت المياه المتبخرة التي تهطل ، لا ضباباً ولا مطراً ، قد غسلت وجهه كيد رقيقة ، وكشفت عينيه الغائرتين عميقاً . كان ينظر الآن الى السماء ، وفي اعماقها كانت غيوم سوداء تتزاحم بلا انقطاع سرعان ما تنمحي وسرعان ما تحل محلها سحائب أخرى . وكانت ثنية بنطاله قد اختفت ومعها اختفت الحرارة والثقة التي

يصاحبها رجل طبيعي في تنزهه في عالم مصنوع من أجله . ومن اجل ذلك اقترب من النار ومن زغرو ، جالسا بمواجهته في ظل المدفأة العالية وبمواجهة السماء دائما . ونظر اليه زغرو وحول عينيه ورمى في النار كرة من الورق كان يجعلها في يده اليسرى . وفي هذه الحركة المضحكة كما هي دائما ، تلقى مرسو الضيق الذي كان يسببه له مرأى هذا الجسد نصف الحي . وابتسم زغرو ولكنه لم يقل شيئا . وفجأة احنى وجهه نحوه . كان اللهب يلعب على خده الايسر وحده . ولكن شيئا ما في صوته وفي نظره كان مشحونا بالحرارة .

قال :

– يبدو عليك انك متعب .

وبدافع من حياء أجاب مرسو بهذه الكلمات فقط :

– اجل ، اني « ضجر » .

وبعد فترة، نهض وسار نحو النافذة، وأضاف وهو ينظر الى الخارج :

– أرغب في ان اتزوج او انتحر او اشترك بمجسلة «أو لوستراسيون» .  
وبالاختصار حركة يائسة .

وابتسم الآخر :

– انك فقير يا مرسو . وهذا يفسر نصف قرفك . اما النصف الآخر فانك مدين به إلى اقرارك اللامعقول الذي تحمله للفقير .

كان مرسو ما يزال يوليه ظهره وينظر الى الاشجار في مهب الريح . وملس زغرو بيده الغطاء الذي كان يغطي ساقيه .

– انت تعلم ان الانسان يحكم على ذاته دائما بالنسبة للتوازن الذي يقيمه بين حاجات جسده ومتطلبات فكره . اما انت ، فانك تحاكم نفسك بقذارة ، يا مرسو . انك تعيش عيشة سيئة ، عيشة المتوحش .

وادار رأسه نحو باتريس .

– هل تحب ان تسوق سيارة ؟

– نعم .

– هل تحب النساء ؟

– عندما يكنّ جيلات .

– هذا ما كنت أعنيه .

وأستدار زغرو ناحية النار .

بعد لحظة بدأ يقول : « كل هذا ... » .

التفت مرسو وأخذ ينتظر نهاية الجملة ، وهو مستند على الزجاج الذي كان يلتوي قليلاً خلفه . ظلّ زغرو صامتاً . كانت ذبابة باكورية تطنّ على الزجاج . والتفت مرسو وحبسها تحت يده ثم أطلقها . وكان زغرو ينظر اليه ، وقال له متردداً :

– لا أحب ان أتكلم جيد . لأنه لن يكون هناك إلا شيء واحد يمكننا التحدث به : التبوير الذي يضيفه المرء على حياته . اما أنا ، فاني لا أرى كيف أستطيع ان أبرر لنفسي ساقبيّ المبتورتين .

– « وأنا كذلك » . قال زغرو من غير ان يتلفت .

وأنفجرت فجأة ضحكة زغرو النضرة :

– شكراً . انك لا تترك لي أي وم .

وغيره لهجته : – ولكنك محق في ان تكون قاسياً . على انّ هناك أمراً أودّ ان أقوله لك .

وصمت برصانة . وأقبل مرسو مجلس تجاهه .

وكرر زغرو :



- اسمع وانظر اليّ . انهم يساعدونني على قضاء حاجاتي ، وبعد ذلك يفسلونني وينشفونني . وأسوأ ما في الأمر انني أستأجر شخصاً ليقوم بهذا العمل . ومع ذلك ، فاني لن أقوم أبداً بحركة لأختصر حياة اؤمن بها كثيراً . انني قد أتقبل ما هو أسوأ أيضاً ، ان أكون أعمى وأخرس وكل ما تريده ، شريطة ان أحس فقط في أحشائي هذه الشعلة الداكنة والمحتدمة التي هي أنا وأنا الحيّ . ولن أفكر إلا بان أحمد للحياة أنها أتاحت لي ان احترق بعد .

وأرتقى زغرو إلى الخلف لاهثاً بعض الشيء . كان يُرى الآن أقل من ذي قبل ، فقط انكاساً كبيراً كانت أعطيته تخلفه على ذقنه . إذ ذاك قال :

- وانت يا مرسو ، ان واجبك الوحيد هو ان تعيش بجسدك . وان تسعد .  
قال مرسو :

- لا تجعلني أضحك . تصوّرني بساعاتي الثاني في المكتب . آه ! لو كنت حراً ! .

وكان يحس بالانتعاش وهو يتكلم ، ويعاوده الأمل كما كان في السابق احياناً ، وقد ازداد اليوم قوة بدافع من الاحساس بالمعون . وكانت ثقة ما تأتيه من ان بوسعه اخيراً ان يكون موضع ثقة . وقد هدأ قليلاً وبدأ يسحق لفافة ، وأستأنف بمزيد من الرزاقنة :

- لسنوات خلت ، كان كل شيء امامي . وكانوا يحدّثونني عن حياتي وعن مستقبلي . كنت أقول نعم . بل كنت أفعل ما كان ينبغي عليّ ان أفعله من أجل ذلك . ولكن ذلك كله بدأ آنذاك يكون غريباً عليّ . ان أتشبهت بالاشخصية ، هذا ما كان يشغلني . وان لا اكون سعيداً « ضدياً » . انني أسيء الشرح . ولكنك تفهم يا زغرو .

قال الآخر :

- أجل .

- وما ازال الآن ، لو أتيت لي الوقت .. لن يكون امامي إلا أن أستسلم .  
وكل ما قد يحصل لي ، علاوة على ذلك ، فانما هو كالمنظر فوق حصاة ، انه يُنعشها  
وهذا بذاته جميل جداً . وذات يوم سوف تلتهب بالشمس . لقد بدا لي دائماً ان  
السعادة انما هي هذا بالضبط .

كان زغرو قد شبك يديه . وفي الصمت الذي تلا ، بدأ المطر يتضاعف .  
وانتفخت الغيوم في ضباب لا متميز . وأظلمت العرفة بعض الشيء كما  
لو كانت السماء تصب عليها حمولتها من العنمة والصمت . وقال العاجز باهتمام :

- ان للجسد دائماً المشال الذي يستحقه . ومثال الحصاة هذه ، ان كان  
بإمكانني ان أقول ذلك ، يحتاج ، لكي يدعمه ، جسد نصف - إله .  
قال مرسو مندهشاً قليلاً :

- هذا صحيح ! ولكن لا تبالغ بشيء . لقد قُتبت بكثير من الرياضة ، وهذا  
كل ما الأمر . وأنا قادر على ان أمضي بعيداً في الشهوة .  
وفكر زغرو .

قال :

- نعم . وهذا افضل لك . ان تدرك حدود جسدك ، هذه هي البسيكولوجية  
الصحيحة . ثم انه ليس لذلك أهمية . ليس لدينا الوقت لنكون « نحن أنفسنا » .  
ليس لدينا الوقت الا لنكون سعداء . ولكن هل يضجرك ان تحدث لي فكرتك  
في اللاشخصية ؟ .

قال مرسو :

- لا .

ثم صمت .

شرب زغرو جرعة من شايبه ، وترك فنجاناه المليه . كان يشرب قليلاً جداً ،

لأنه لا يريد ان يبول إلا مرة واحدة في اليوم . وبقوة الإرادة ، كان يتوصل دائماً تقريباً إلى ان يخفف ثقل الأذلال الذي كان يعمله إليه كل يوم . ليس هناك توفيرات صغيرة . انما هي ماثرة كغيرها . وهذا ما كان قد قاله لمرسو ذات يوم . وتساقطت لأول مرة بضع قطرات من الماء في المدفأة ، وأنت النار ، وكان المطر يتضاعف على الزجاج . وفي جهة ما أصطفت باب . وفي الطريق المقابل كانت السيارات تتتابع كجرذان لماعة . وزمرت إحداها طويلاً . وعبر الوادي الصغير ، كانت الرنين الأجوف الحزين يجعل حيز العالم الرطب أكثر رحابة ، حتى ان ذكراه بالذات غدت بالنسبة لمرسو كبة من صمت هذه السماء وضيقها .

— انني استمبحك عذراً يا مرسو . فقد مضى عليّ وقت طويل من غير ان أتحدث عن بعض الأمور . ولذلك فانا لم أعد أعرف أو لا أعرف كما ينبغي . عندما أنظر إلى حياتي وإلى لونها الحقيقي ، أحس فيّ ما يشبه زلزالاً من الدموع ، شأني في ذلك شأن هذه السماء . انها مطر وشمس معاً . منتصف نهار ومنتصف ليل . آه ، يازغرو ! أفكر في هذه الشفاء التي قبلتها ، والولد الفقير الذي كنته ، وفي جنون الحياة والطموح الذي يمصف بي في بعض اللحظات . انني كل ذلك في آن واحد . أنا متأكد من ان هناك لحظات لن تعرفني فيها . لا أدري ، فانا متطرف في الشفاء مغالٍ في السعادة .

— أتلعب على عدة مستويات في آن واحد ؟

قال مرسو بجدّة :

— نعم . ولكن لا كهو . كلما فكرت في مسيرة الألم والفرح هذه في ذاتي ، أدرك جيداً وبجهاش شديد ان اللعبة التي ألعبها ، هي ، من بين جميع الألعاب ، اكثرها رصانة واشدها إثارة .

كان زغرو يبتسم .

– هل لديك إذن شيء تقوم به ؟

قال مرسو بمنف :

– لديّ حياتي لأكسبها . غير ان عملي وهذه الساعات الثماني تحول بيني وبين ذلك .

وصمت وأشعل اللقافة التي كان ما يزال يمسكها بين أصابعه .

ثم قال قبل ان يطفئ عود الثقاب :

– ومع ذلك ، فلو كنت املك ما فيه الكفاية من القوة والصبر ...

ونفخ على عوده وسحق طرفه المضم على ظهر يده اليسرى .

– انني أدرك جيداً إلى أي درك من الحياصة سأصل . لن اجعل من حياتي تجرية . سأكون تجرية حياتي . أجل ، انني أدرك جيداً ايّ هوس سيملاني بكل قوته . فيما مضى كنت أصغر مما ينبغي . وكنت أقف في الوسط . اما اليوم ، فقد أدركت ان المرء حين يعمل ويحب ويتألم فائماً يعيش بالفعل ، ولكنه يعيش بقدر ما يشقّ ويتقبل قدره كأنمكاس فريد لقوس قزح من الفرح والأهواء هو نفسه بالنسبة للجميع .

قال زغرو :

– هذا صحيح . ولكنني كنت أستنتج . ستبقى وحيداً يوماً ما . وهذا كل شيء . ولكن اجلس واستمع الي . ان ما سبق لك ان ذكرته لي قد أثار انتباهي . هناك شيء بالذات همّتي ، لأنه يؤكد كل ما علمتني اياه تجربتي كإنسان ، انني احبك كثيراً يا مرسو بسبب جسدك على كل حال . انه هو الذي علمك كل هذا . واليوم يبدو لي انني استطيع ان اكلمك بقلب مفتوح .

عاد مرسو فيجلس بهدوء ودخل وجهه في النور المحمر لنار توشك على النهاية . وفجأة ، وفي مربع النافذة ، أحسنّ خلف الستائر الحربية بما يشبه الانفتاح في

الليل . شيء ما كان يسترخي خلف الزجاج . ونفسه ضوء حلبي إلى الغرفة ،  
وتعرف مرسو على شفتي الانسان البوذي الكامل الساخرتين والمتحفظتين ، وعلى  
التحاسيات المنحوتة . تعرف على الوجه المألوف الحافظ للبالى المكوكبة والقمرية  
التي كان يحبها كثيراً . كان ذلك كما لو أن الليل كان قد فقد بطانته من الغيوم  
فأخذ يلعب في ألقه الهاديء . وعلى الطريق ، كانت السيارات تجري بسرعة أقل .  
وفي أعماق الوادي الصغير ، كان اضطراب مفاجيء هيء المصافير للنوم . وكانت  
تُسمع خطى امام البيت . وفي هذا الليل كانت الاصوات ترن أكثر اتساعاً  
واكثر صفاء كحليب على العالم . وبين النار المحمرة واختلاج يقظة الغرفة وبين  
الحياة الحقة للاشياء المألوفة التي كانت تحيط به ، كانت قصيدة خاطفة تُنسج  
وتهيء مرسو ليتقبل من قلب آخر بثقة وحب ما سيقوله زغرو . انقلب قلباً  
على مقدمه ، وامام السماء اخذ يستمع إلى قصة زغرو الغريبة .

بدأ يقول :

– انني متأكد من أننا لا نستطيع ان نكون سعداء بلا مال . هذا كل ما  
في الأمر . انني لا احب السهولة ولا الرومنطيقية . أحب ان افهم . لاحظت  
عند بعض النخبة انهم يعتقدون في نوع من التفاخر الروحي بأن المال غير ضروري  
للسعادة . هذه بلادة . وهذا خطأ ، وهو إلى حد ما جبن . أتري يا مرسو ،  
بالنسبة لرجل كريم النسب ، فان السعادة ليست امرأ معقداً . يكفيه ان يستعيد  
قدر الجميع ، ليس بارادة الزهد كما يفعل عدد كبير من الرجال الكبار المزيفين ،  
ولكن بارادة السعادة . على انك بحاجة إلى وقت لتكون سعيداً ، كثير في  
الوقت . السعادة هي أيضاً صبر طويل . وفي جميع الحالات تقريباً تُتلف  
حياتنا لنكسب مالاً . بينما يجب ، بالمال ، ان نكسب وقتنا . هذه هي المشكلة  
التي اثارت اهتمامي في وقت ما . انها دقيقة واضحة .

توقف زغرو وأغمض عينيه . وكان مرسو يتطلع إلى السماء باصرار . بعد

لحظة ، غدت أصوات الطريق والقرية مميزة ، واستأنف زغرو حديثه من غير ما  
استمجال :

— . . . اوه ، انا أدرك جيداً ان غالبية الرجال الأغنياء لا يملكون أي حس  
بالسعادة ، ولكن السؤال ليس هنا . ان يكون لديك مال ، معنى ذلك هو ان  
يكون لديك وقت . انني لا أحميد عن هذا . ان الوقت يُشترى . كل شيء  
يشترى . ان تكون او ان تصبح غنياً ، معناه ان تملك الوقت لتصبح سعيداً  
عندما يكون الانسان جديراً بان يكونه .

ونظر إلى باتريس وقال :

— مرسو ، عندما كنت في الخامسة والعشرين من عمري ، كنت قد أدركت  
ان كل كائن يملك حس السعادة وارادتها ومطلبها كان يحق له ان يكون  
غنياً . وكان مطلب السعادة يبدو لي اشرف ما في قلب الانسان . وكان كل  
شيء يُبرّر بها في نظري . ان قلباً نقياً كان كافياً لذلك .

وأخذ زغرو ، الذي كان ما يزال ينظر إلى مرسو ، يتكلم فجأة بهدوء اكثر ،  
بصوت بارد وقاس ، كما لو انه كان يود ان يخرج مرسو من شروده الظاهري :

— في الخامسة والعشرين بدأت أجمع ثروتي . لم أراجع امام الاحتيال . لم  
يكن لي ان أراجع امام أي شيء . وبعد سنوات ، كنت قد حققت ثروتي  
النقدية كلها . تصوّر يا مرسو ، ما يقرب من المليونين . كان العالم يفتتح لي ، ومع  
العالم ، الحياة التي احلم بها في العزلة والاضطراب .

وعاود زغرو ، بعد فترة ، بصوت مخنوق :

— تلك هي الحياة التي كنت سأحياها ، لولا الحادث الذي أودى بساقي في

الحال تقريباً . لم أعرف كيف أنتهي . وها انا الآن . انك تدرك جيداً ، اليس كذلك ، انني لم اكن اريد ان اعيش حياة مستضعفة . ومنذ عشرين عاماً ومالي هنا ، بالقرب مني . لقد عشت بتواضع . لم اكد أنقص ثروتي .

وأمرّ يديه القاسيتين على جفنيه، وقال بصوت اكثر انخفاضاً :

— يجب ألا تكون الحياة أبداً بقبيلات عاجز..

في هذه اللحظة ، كان زغرو قد فتح الصندوق الصغير الذي كان يلامس المدفأة، وأشار الى خزانة نحاسية ضخمة مسمّرة مع مفتاحها . وكانت على الخزانة رسالة بيضاء ومسدس كبير اسود . وعلى نظرات مرسو الفضولية بلا تمدد، كان زغرو قد ردّ بإبتسامة . كان ذلك بسيطاً جداً . ففي الايام التي كان يحس فيها اكثر مما ينبغي المأساة التي كانت قد حرمته من حياته ، كان يضع امامه هذه الرسالة التي لم يكن قد أرتخها ، والتي كانت تشكل قسماً من رغبته في ان يموت ، ثم كان يضع السلاح على الطاولة ويقرب المسدس ويلصق عليه جبينه ويدبر عليه صدغيه، ويخفف على برودة الحديد حمّى وجنتيه . مكث على هذه الحالة وقتاً طويلاً وهو يترك اصابمه تتيه على طول الزناد، ويحس فريضة التوقف، الى ان يصمت العالم من حوله ويلفه النعاس . فيتنغمر كيانه كله في الاحساس بمديد بارد ومتسخ يمكن للموت ان يخرج منه . وحين يحس انه يكفيه ان يؤرخ رسالته وان يُطلق، ويتحقق من عبثية سهولة الموت، كانت تخيلته تنشط بما فيه الكفاية لتمثل له ، بكل قطاعته ، ما يمنيّه ، في مفهومه ، نفي الحياة . فكان يحمل في نصف اغفائه رغبته كلها في ان يحترق بعد وسط الكرامة والصمت . وحين كان يستيقظ تماماً ، وفمه ما يزال مليئاً بريق مرّ ، كان يلحق انبوب السلاح ويدخل فيه لسانه ويدمدم اخيراً بسعادة مستحيلة .

— لقد أضعت بالطبع حياتي . ولكنني كنت على حق آنذاك . كل شيء من

اجل السعادة ضد العالم الذي يحوطننا بمحاقتة وعنفه .

وضحك زغرو أخيراً وأضاف :

- أترى ، يا مرسو ، ان سقوط حضارتنا وقساوتها تقاس بهذه المسلة السخيفة التي تقول بان ليس للشعوب السعيدة تاريخ .

كان الوقت متأخراً جداً . كان مرسو مخطئاً في تقديره ذلك . وكان رأسه يعمج بهيجانٍ محموم ؛ وكان في فمه حرارة اللغافات التي كان قد دخنها وحمازتها . وكان الضوء من حوله متواطئاً ابداً . ولأول مرة ، منذ ان استمع الى قصته ، التفت ناحية زغرو وقال :

- اعتقد أنني أفهم .

وكان العاجز تعباً من مجهوده الطويل يتنفس بخفوت . على أنه قال بجهد بعد فترة صمت :

- أودّ ان اتأكد من أنك قد فهمت . لاجمعلي أقول ان المال يصنع السعادة . انما اقصد فقط أنه بالنسبة لطبقة ما من البشر تصبح السعادة ممكنة . ( شرط ان يؤمن الوقت ) وان تملك المال هو ان تتحرر من المال .

كان مكوماً على كرسيه وتحت أعطيته . وكان الليل مطبقاً على نفسه فلم يعد مرسو يرى الآن رولان زغرو تقريباً . وتبع ذلك صمت طويل ، وكان مرسو يرغب في ان يعيد الاتصالات ويتأكد من حضور هذا الانسان في الظلمة ، فنفض وكأنه يتحسس وقال :

- انها لمجازفة جميلة يتعرض لها المرء .

قال الآخر خفية :

- اجل . ومن الافضل ان تراهن على هذه الحياة بدلاً من ان تراهن على الأخرى . أما بالنسبة لي ، فانها بالطبع مسألة اخرى .



فكر مرسو : « خرقة اصفر في العالم » .

- منذ عشرين عاماً لم استطع أن أقوم بتجربة سعادة ما . هذه الحياة التي تنهني ، لم اكن لأتعرف عليها تماماً . وان ما يخيفني في الموت هو هذا اليقين الذي يحمله لي من ان حياتي قد استهلكت دوني . على الهامش . هل تفهم ؟

وبلا تمهيد ، انبعثت في الظلمة ضحكة قنية جداً :

- هذا يعني ، يا مرسو ، في حقيقة الأمر ، أنه ما يزال لي ، في حالي ، بعض الأمل .

وتقدم مرسو بضع خطوات نحو الطاولة .

قال زغرو :

- فكر في هذا كله ، فكر فيه كله .

واكتفى الآخر بان قال :

- هل استطيع ان اضيء النور ؟

- ان أردت .

ويدأ أنف رولان وعيناه المستديرتان أكثر شحوباً في النور المشع . كان يتنفس بجهد . وقابل حركة مرسو ، وهو يمد اليه يده ، بأن هز رأسه وضحك ضحكاً أقوى مما ينبغي :

- لا تبالغ في حملي على محمل الجد . انت تدرك ان الهيئة المأساوية التي يتخذها الناس امام ساقى المبتورتين تميظني دائماً .

وفكر الآخر : « انه لا يكثرث بي » .

- لا تنتظر بطريقة مأساوية إلا إلى السعادة . فكر بهذا جيداً ، يا مرسو .  
ان لك قلباً نقياً . فكر بهذا .

ثم نظر إليه في عينيه وقال له بعد فترة :

- وأنت تملك أيضاً ساقين، فذلك أمر لا يفسد شيئاً .

وابتسم إذ ذاك وحرك جرساً صغيراً :

- انصرف يا صغيري ، انني أريد ان أبول .

## الفصل الخامس

حين عاد مرسو الى منزله مساء هذا الأحد ، وكانت افكاره كلها متجهة  
نحز زغرو ، قبل ان يدخل غرفته ، سمع نواحاً كان يأتي من شقة كردونا ،  
البراميلى . طرق الباب فلم يجبه أحد . كان الاذنين مستمراً . فدخل من غير ما  
تردد . كان البراميلى متكوراً على سريره ، وكان يبكي وهو يغصّ غصات طفل  
كبيرة . وكانت عند قدميه صورة امرأة عجوز . « لقد ماتت » . قال ذلك  
لمرسو بجهد كبير . وكان ذلك صحيحاً ، وكان قد مضى عليه وقت طويل .

كان اسمّ ، نصف أخرس ، شربراً وفظلاً . وكان حتى ذلك الحين قد عاش  
مع اخته . ولكنها ، اذ تعبت من شرسته ومن استبداده ، فقد التجأت بالقرب  
من اولادها . وبقي هو وحده ، حائراً حيرة رجل عليه ان ينظف منزله ويحضر  
طعامه لأول مرة . وكانت اخته قد روت نزاعاتها لمرسو الذي كانت قد التقت  
به يوماً في الشارع . وكان هو في الثلاثين من عمره ، قصيراً ، لا بأس بجماله .  
وكان قد عاش منذ طفولته مع امه . كانت المخلوق الوحيد الذي أوحى اليه  
بخوف موسوس اكثر مما هو مبرّر . كان قد أحبها بروحه الفظة ، أي بشراة  
واندفاع مزوجين . وخير دليل على محبته كانت طريقته في مضايقة المرأة  
المعجوز بتلفظه بأبداً الكلام عن الكهنة وعن الكنيسة . ولئن كان قد عاش

كل هذا الوقت الطويل مع امه ، فلأنه ايضاً لم يكن قد أوحى لأية امرأة بتعلق  
رصين . إلا ان المغامرات النادرة أو البيت العمومي كانت تسمح له ان يدعي  
الرجولة .

وماتت الأم . ومنذ ذلك الحين ، عاش مع اخته . كان مرسو قد اجرهما  
الغرفة التي كانا يمتثلانها . وكان الاثنان وحدهما يشقيان ويرتقيان حياة طويلة  
قدرة وسوداء . وبصعوبة كانا يتمكنان من ان يتحادثا . ولهذا كانت تمر أيام  
كاملة من غير ان يتبادلا كلمة واحدة ، ولكنها كانت قد رحلت . ولقد كان  
اكثر كبرياء من ان يتشكى ويطلب منها ان تعود . كان يعيش وحده . في الصباح  
كان يأكل في المطعم وفي المساء يأكل في منزله شرائح من لحم الخنزير ، كان  
يقرك غرفته في اسوأ حال من القذارة . على انه ، في بعض الاحيان ، في أول  
الأمر ، يوم الاحد ، كان يأخذ رقعة ويحاول ان ينظم الغرف بعض التنظيم .  
ولكن بعض سذاجات رجالية ، وقدرأ على المدفأة ، كانت فيما مضى مزهرة  
ومزينة ، توشي بالأهمال الذي كان كل شيء يسبح فيه . وان ما كان يسميه  
ترتيباً . كان يرتكز على اخفاء الفوضى وستر ما كان مبعثراً وراء الوسائد  
او اكثر الاشياء غرابية على الصوان . ومع ذلك ، فقد انتهى به الامر الى  
السأم ، فلم يكن حتى ليصلح سريره وكان ينام مع كلبه على الاغطية الوسخة  
النتنة . وكانت اخته قد قالت لمرسو : « انه يتخايب في المقاهي . ولكن  
المؤجزة قالت لي انها كانت قد شاهدته يبكي وهو يغسل ثيابه » .

وفي الواقع ، وبالرغم من القساوة التي كان عليها ، فان رعباً ما كان  
يستولي على هذا الرجل في بعض الساعات ويجعله يقدر مدى التخلي عنه .  
وكانت تقول لمرسو انها بالطبع كانت تعيش معه بداعي الشفقة . ولكنه

كان ينمها من ان ترى الرجل الذي كانت تحبّه . على ان ذلك لم يكن له كبير أهمية في سنتها . ولقد كان رجلاً متزوجاً . وكان يحضر لصديقتة زهوراً كان قد قطفها من أسيجة الضواحي وبرتقالاً ومشروبات كان يكسبها من المرض . صحيح انه لم يكن جميلاً ولكن الجمال لا يؤكل سلطة . ثم انه كان طيباً جداً . كانت متعلقة به هو الذي كان متعلقاً بها . أياكون الحب شيئاً آخر ؟

كانت تغسل له ثيابه وتجهد لكي تبقىة نظيفاً . وكان من عادته ان يحمل مناديل مطوية على شكل مثلث وممقودة حول العنق ، وكانت تصنع له مناديل بيضاء جداً . وكان ذلك إحدى مسراتها .

ولكن الآخر ، الأخ ، لم يكن يريد ان تستقبل صديقها . فكان عليها ان تراه خفية . وكانت قد استقبلته مرة . وإذفاجأهما ، فقد حصلت مشاجرة عنيفة . كان المندبل المثلث قد بقي بعد ذهابها في ركن وسخ من الغرفة ، وكانت ان التجأت عند ابنها . وكان مرسو يفكر بهذا المندبل امام الغرفة القذرة التي كانت تنفتح لعينيه .

وفي تلك الفترة ، كان الناس قد رثوا مع ذلك للبراميلي ان يكون متوحداً الى هذا الحد . كان قد حدث مرسو عن زواج ممكن . وكان المقصود امرأة اكبر منه سنّاً

ولا شك انه كان يغريها أمل مداعباتٍ شابة وقوية . وكانت ان حصلت عليها قبل الزواج . وبعد فترة ، تراجع عشيقها عن المشروع ، معلناً انه كان يجدها أسنّ مما ينبغي . وبقي وحيداً في هذا البيت الصغير من الحي . وشيناً

فشيئاً طوقته القذارة وحاصرته وضربت سريره ، ثم غمرته على نحو راسخ . كان البيت قبيحاً أكثر مما ينبغي . وبالنسبة لرجل فقير لا يجد المسرة في بيته ، ثم بيت أقرب منالاً وأكثر غني ، ومضئاً ، ومرحّباً دائماً : هو المقهى . كان رواد هذا الحي حيويين بنوع خاص . وفيه كانت تهين حرارة القطيع ، تلك الحرارة التي هي الملاذ الأخير ضد أهوال الوحدة ومتطلباتها القادمة . وقد اتخذ الرجل الأبكم فيه منزلاً ، كان مرسو يجده هناك في جميع الامسيات . وكان يفضلهم يؤخر الى أبعد حد ممكن لحظة الرجوع . وفيهم كان يستعيد مكانه بين البشر . وهذا المساء بالذات لم تكن المقاهي ، بلا شك لتكفي . واذا عاد الى منزله ، فلا بد انه كان قد اخراج هذه الصورة وايقظ معها اصداه الماضي الميت . فوجد من جديد تلك التي كان قد أحبها وعذبها . وفي الغرفة الكريمة ، وحيداً أمام لاجدوى حياته ، وقف مستجمعاً قواه الاخيرة ، ليسترد الماضي الذي كان يشكل سعادته . كان ينبغي افتراض ذلك على الأقل ، وافترض أن" اللقاء هذا الماضي بماضره البائس قد فجر شرارة الهية ، مادام قد أخذ يبكي .

وككل مرة كان فيها مرسو يحيد نفسه أمام مظهر قاسٍ من مظاهر الحياة ، فقد كان بلا قوة ، يمتثل احتراماً أمام هذا الألم الوحشي . وقد جلس على الأغذية القذرة المدعوكه ووضع يده على كتف كردونا . كان امامه ، على شرف الطاولة المشمع ، قنديل كاز ، وزجاجة خمر ، وقتات خبز ، وقطعة جبن وصندوق ادوات . وفي السقف تدلت بيوت انسجة العناكب . وكان مرسو ، الذي لم يسبق له ان دخل هذه الغرفة منذ موت امه ، يحسد بالقذارة والبؤس المزفت الذي كان يلاها ، الطريق الذي قطعه هذا الانسان .

كانت النافذة التي تطل على الملعب مغلقة ، اما الأخرى فلم تكن تكون مفتوحة . وكان قنديل الكاز يرسل نوره المستدير الهاديء على

الطاولة ، وعلى قدمي مرسو وكردونا، وعلى كرسي كان يواجهها على مقربة من الحائط . في هذه الأثناء كان كردونا قد أمسك الصورة بين يديه : كان ينظر اليها ويقول ، وهو ما يزال يقبلها ، بصوت العاجز الذي كانه : « مسكينة امي » . ولكنه انما كان يرثي نفسه كذلك . كانت قد دفنت في المقبرة القبيحة التي كان مرسو يعرفها جيداً من الطرف الآخر في المدينة .

وأراد ان يذهب ، فقال وهو يتهجي الكلام لكي يفهم :

- يجب - ان - لا - تبقى هكذا .

قال الآخر بمشقة : « ليس لدي عمل بعد » ، وقال بصوت متقطع وهو يمد الصورة : « كنت أحبها » ، وترجم مرسو : « كانت تحبني »

- « لقد ماتت » وفهم مرسو : « انني وحيد » .

- كنت قد صنعت لها هذا البرميل الصغير ليعيدها .

على المدفأة ، كان هناك برميل صغير من الخشب المدهون مزين بالدوائر النحاسية وحنفية لماعة . وترك مرسو كتف كردونا الذي استرخى على الوسائد القذرة . ومن تحت السرير انبعث تأوه عميق ورائحة منفرة . وخرج الكلب على مهل ، وهو يحوف كليتيه . ووضع على ركبتي مرسو رأسه ذا الأذنين الطويلتين والعينين المذهبتين . كان مرسو ينظر الى البرميل الصغير . وفي الغرفة القذرة حيث كان هذا الرجل يتنفس بجهد ، وحرارة الكلب تحت أصابعه ، كان يغمض عينيه على اليأس الذي كان ، لأول مرة منذ زمن بعيد ، يتصاعد فيه كبحر . أمام الشقاء والوحدة ، كان قلبه اليوم يقول : « لا » وفي الحزن الكبير الذي كان يملأه ، كان مرسو يحس جيداً ان تمرده كان الشيء الوحيد الحقيقي في نفسه ، وان كل ما تبقى كان بؤساً وبجامة . وكان الشارع الذي كان



البارحة يعيش تحت نوافذه ما يزال يمتليء بأصواته . وتصاعدت ، في الحدائق تحت السطیحة ، رائحة اعشاب . قدم مرسو لكردونا لفافة ، فدخلن كلاهما من دون ان يتكلما . ومرت آخر الحافلات ، ومرت معها الذكريات التي ما تزال حية للرجال والاضواء. ونام كردونا ثم ما لبث ان شخر أنفه المليء بالدموع . وكان الكلب الكوثر عند قدمي مرسو يتحرك احيانا ويثن تحت احلامه . وعند كل حركة ، كانت رائحته تصعد نحو مرسو . كان مرسو مستندا الى الحائط وكان يحاول ان يضغط في قلبه ترمد الحياة . أخذ القنديل يدخن ، ويسود ، واخيراً انطفأ باعثار رائحة كاز كرهية .

كان مرسو هسوم ، واستيقظ وعيناه محدقتان على زجاجة الخمر . ونهض في جهد كبير . وذهب نحو نافذة داخلية وتجمد امامها . ومن اعماق الليل ، كانت تصعد نحوه نداءات والوان من الصمت . وعند حدود العالم الذي كان يغفو هنا ، تصاعد طويلاً نداء مركب يدعو الناس الى الرحيل والى بداءات جديدة .

وفي اليوم التالي ، كان مرسو يقتل زغرو . ويعود الى منزله وينام عصر يوم بأمله ، ويستيقظ محموماً . وعند المساء امتدعى طبيب الحي ، وهو ما يزال مستلقياً ، فأبلغه بأنه مصاب بنزلة وافدة . وأتى موظف من مكتبه حين علم بأخباره حاملاً معه طلبه للاجازة . وبعد ايام ، كان كل شيء قد دُبّر . محضر الموت والتحقيق . وكان كل شيء يبرر فعل زغرو . وجاءت مارت لترى مرسو ، وقالت وهي تنهد : « هناك ايام يريد فيها الانسان ان يكون محله . ولكن هناك مرات ، يحتاج فيها الانسان الى مزيد من الشجاعة ليعيش اكثر مما يحتاج لينتحر » . وبعد اسبوع كان مرسو يبجر الى

مرسيليا . كان ذاهباً ، بالنسبة للجميع ، ليرتاح في فرنسا . ومن ليون ، تلمّقت مارت رسالة قطيعة عانت منها كبرياؤها . وفي الوقت نفسه ، كان يعلن لها ان وظيفة استثنائية كانت قد عرضت عليه في اوروبا الوسطى . وكتبت له مارت رسالة عن ألمها وضعتها في شباك البريد . ولم تصل هذه الرسالة قط لمرسو ، الذي أصيب ، في اليوم التالي لوصوله الى ليون ، بنوبة حمى عنيفة وقفز الى قطار متوجه الى براغ . ومع ذلك ، فقد كانت مارت تخبره انهم ، بعد عدة ايام من عرض الجثة ، كانوا قد دفنوا زغرو وأنهم كانوا بحاجة الى كثير من الوسائد لكي يسندوا جذعه في النعش .

## القِيمُ الثَّانِي

الموت الواعي

## الفصل الأول

قال الرجل بالألمانية :

— أريد غرفة .

كان البواب الجالس امام لوحة محملة بالمفاتيح مفصلاً عن البهو بطاولة عريضة .  
وقد تفحص الشخص الذي دخل الساعة ، ومعطفه المشع الرمادي ملقى على  
كتفيه ويتحدث وهو يدير رأسه .

— بالطبع ، أيها السيد ، الليلة ؟

— لا . لا أدري .

— عندنا غرف بثمانية عشر كوروناً وبخمس وعشرين وبثلاثين .

كان مرسو ينظر إلى شارع براغ الصغير الذي كان يُرى من خلال باب الفندق  
الزجاجي ، كانت يدها في جيبه مكشوف الرأس تحت شعره المشعث ، وعلى بعد  
خطوات ، كان يسمع صرير الحافلات التي كانت تهبط جادة ويتسلاس .

— أية غرفة ترغب يا سيدي ؟

قال مرسو ، ونظراته ما تزال مسمرة على الباب الزجاجي :

— لا فرق .

فأخذ البواب مفتاحاً من على اللوحة وقدمها لمرسو .

قال : — الغرفة رقم ١٢ .

وبدا على مرسو انه يستيقظ .

— كم أجرتها ، هذه الغرفة ؟

- ثلاثون كوروناً .

- انها أعلى مما أستطيع . أريد غرفة بثمانية عشر كوروناً .

وأخذ الرجل مفتاحاً جديداً، من دون ان ينبس بكلمة، وأشار إلى النجمة النحاسية التي كان المفتاح يتدلى منها : الغرفة رقم ٣٤ .

حين جلس مرسو في غرفته ، خلع سترته ، وشد قليلاً ربطة عنقه ، من دون ان يفكها، وشمر أكمام قميصه بطريقة آلية . واقترب من المرأة فوق المغسلة ، للملاقة وجه ذي ملامح مشدودة ، مسمر في الاماكن التي لم تكن تسودها ذقن نمت منذ بضعة أيام . وكان شعره المشعث من سباق الترام ، يتهدل متناثراً على جنبه حتى تثبتين عميقتين بين الحاجبين كانتا تضيفان على نظره نوعاً من التعبير الجاد الحنون أستلقت نظره بالذات . وعندها فقط فكر في أن ينظر حوله إلى الغرفة الحقةرة التي كانت تشكل ثروته الوحيدة والتي لم يكن يرى فيها وراءها أي شيء على الإطلاق . وعلى سجادة قدرة ذات رسوم ازهار ضخمة صفراء على أرضية رمادية ، كانت جغرافية كاملة من القنطرة ترسم عوالم لزجة من البؤس . وخلف المشمع الضخم ، كانت زوايا دهنية وموحلة . وكان المعكاس مكسوراً فكانت ترى منه أدوات التماس النحاسية . وفوق سرير ذي صفائح نحاسية ، كان خيط قد ورنشه الدهن وجفت عليه بقايا ذباب قديمة ، تتدلى منه لمبة من دون كمة كانت تلزق بالأصابع . ولاحظ مرسو الشراشف التي كانت نظيفة . وأخرج أدوات زينته من الحقيبة ونظمها واحدة فواحدة على المغسلة . ثم تاهب ليغسل يديه ، ولكنه أقفل الحنفية التي لم يكند يفتحها، ثم ذهب ليفتح نافذة بلا ستائر . كانت تطل على فناء خلفي فيه حوض غسيل وهلى جدر مثقوبة بنوافذ صغيرة على إحداها كان غسيل يحف . وتمدد مرسو وسرعان ما غفا . واستيقظ مبتلاً بالعرق، مختل الهندام ، ودار لحظة في غرفته ، ثم أشعل سيكارة وجلس ، فارغ الرأس ، ونظر إلى ثنيات سرواله المدعوك . وفي فمه كانت تتمزج مرارة النوم والسيكارة . ونظر إلى غرفته مرة أخرى وهو يحسك جنبه تحت

قميصه ، وأحسن بعدوية مريعة تتصاعد إلى فمه امام هذا القدر الهائل من الاستسلام والوحدة . وكان يكفيه ان يحس نفسه في هذه الغرفة بعيداً إلى هذا القدر عن كل شيء وحق عن حمائه ، ويتحقق بهذا الوضوح ما في اعماق أكثر الحيوانات تنظيمياً من عبث ويؤس ، حين ينتصب امامه الوجه المخجل الخفي لنوع من الحرية يُولد من الملتبس والمشبوه . وحوله كانت ساعات واهنة وليتة ، وكانت الزمن كله يبقبق كأنه الوحل .

دُقّ الباب بعنف ، فاضطرب مرسو ، وتذكر أنه سبق له ان أوقف بضربات شبيهة بهذه . وفتح فوجد نفسه أمام عجوز مشقر الوبر ، مسحوق تحت حقيقتي مرسو اللتين بدا عليه ضخمتين . كان يجتنق من الغضب ، وكانت أسنانه المفرقة تخرج من خلالها سيلاً من الكلام المليء بالشتائم والاحتجاجات . وإذا ذاك تذكر مرسو القبضة المكسورة التي كانت تجعل كبرى الحقيقتين متعبة إلى هذا الحد بمحملها . و اراد ان يعتذر ، ولكنه لم يسدر كيف يقول انه لم يكن يعلم ان الجمال كان عجوزاً إلى هذه الدرجة . ولكن العجوز القصير قاطعه :

— أربعة عشر كوروناً .

وتعجب مرسو : من أجل يوم في المستودع ؟

وفهم عندئذ من الشروح الطويلة التي قدّمت له ان العجوز كانت قد استقل سيارة أجرة ، ولكنه لم يجرؤ على القول انه كان بإمكانه ان يستأجر سيارة بنفسه في هذه الحالة ، ودفع بدافع من الملل . وحين أغلق الباب أحس مرسو بدموع لا يمكن تفسيرها تملأ صدره . ودقت ساعة قريبة جداً الرابعة . كان قد نام ساعتين . كان يدرك ذلك ، ولم يكن مفصلاً عن الشارع الا بالبيت الذي كان يواجهه ، وكان يحس بزخم الحياة الصامتة السرية التي تسيل منه . من الأفضل ان يخرج . وغسل مرسو يديه طويلاً جداً ، ولكي يبرد أظافره ، عاد فجلس على حافة السرير وحرك بانتظام المبرد ، وصفرت اثنتان أو ثلاث صفارات في

الساحة بعنف شديد جعل مرسو يعود إلى النافذة. وإذ ذاك رأى تحت البيت  
مرا مقبباً يؤدي إلى الشارع . كان ذلك يتم كما لو ان جميع أصوات الشارع ،  
الحياة المجهولة كلها للناحية الأخرى من البيوت ، ضجيج الرجال الذين يملكون  
عنواناً وعائلة واختلافات مع عم ، واطعمة مفضلة على المائدة ومرضاً مزمناً ،  
بالإضافة إلى ازدحام الناس كالنمل والذين كانت لكل واحد منهم شخصيته . كان ذلك كله  
كضربات كبيرة مفصولة إلى الأبد عن قلب الحشد الهائل يتسلل من الممر  
ويتصاعد على طول الملعب كله لينفجر كفقاع في غرفة مرسو . وكان يكفي ان  
يحس نفسه نفيذاً إلى هذا الحد ، منتبهاً إلى هذا الحد لكل اشارة من العالم حتى  
يدرك الشق العميق الذي كان يفتحه على الحياة . وأشعل سيكارة أخرى ولبس  
بمصيبة . وأحس وهو يزرر أزرار سقرته بالدخان يخز جفونه . ورجع إلى  
المغسلة يمسح عينيه واراد ان يسرح شعره . ولكن مشطه كان قد اختفى . وكان  
النوم قد شعث شعره ، وعبثاً حاول ان يعيد تصفيفه . وهبط كما هو ، شعره  
متهدل على وجهه ، ومنكوش من الخلف . كان يحس بمزيد من الاذلال ؛ وإذ  
أصبح في الشارع ، قام بدورة حول الفندق لينفذ امام الممر الصغير الذي كان قد  
لاحظه . كان الممر يفتح على جادة المختارية القديمة . وفي المساء الثقيل بعض الشيء  
الذي كان يهبط على براغ ، كانت قعم قنب المختارية الغوطية وقعم كنيسة  
تينسكي القديمة تتقاطع سوداء . وكان جمع غفير يجري تحت الشوارع الصغيرة  
المقنطرة . وكان مرسو ، امام كل امرأة ، يترصد النظر الذي كان يسمح له بان  
يعتقد نفسه قادراً بعد على ان يلعب لعبة الحياة الرهيفة الخنون . ولكن  
الاشخاص الاصحاء يملكون طريقة فنية طبيعية تتجنب النظرات المحومة . كان  
غير حليق الذقن ، مشعثاً ، في عينه تعبير حيوان قتل ، سرواله مدعوك كقبة  
قميصه . كان قد فقد هذا التفه العجيب الذي تضيفه بذلة مفصلة تفصيلاً جيداً  
أو مقود سيارة . كان الضوء يصبح قاسياً والنهار يتباطأ على ذهب القنب  
الباروكية التي كانت ترى في قلب الساحة . توجه نحو احدها ، ودخل



الكنيسة ، واذ أسرته الراححة القديمة ، فقد جلس على مقعد . كانت القبعة معتمة تعتيماً تاماً، ولكن ذهب تيجان العواميد كان يصب ماء مذهباً سريعاً كان يسيل في اضلاع العواميد حتى وجه الملائكة المنفتح والمقديسين المقهقين . وكانت ثمة عذوبة ، اجل ، لقد كانت هناك عذوبة ولكنها كانت مرة الى حد جعل مرسو يرتد الى العتبة ، وحين انتصب واقفاً على الدرجات ، تنفس هواء الليل الذي غدا الآن اكثر رطوبة والذي كان ينغم فيه . وبعد لحظة اخرى ، رأى أول نجمة تتقد ، نقيه معرأة بين قمم قبب كنيسة نينسكي .

وأخذ يبحث عن مطعم رخيص . وغرق في شوارع أشد ظلاماً وأقل مارة . وبالرغم من ان المطر لم يسقط في النهار، فإن الأرض كانت مبتلة، وكان على مرسو ان يتجنب البرك السوداء بين البلاطات النادرة . ثم أخذ مطر خفيف ناعم عطل . ولم تكن الشوارع المأهولة بعيدة من غير شك ، لأن أصوات منادي الصحف كانت تُسمع الى هنا وهم ينادون « النارودنا بوليتيكا . وكان هو ، اثناء ذلك ، يطوف بالمكان . ثم توقف فجأة . كانت رائحة غريبة تتصاعد من اعماق الليل . كانت واخزة ، حامزة ، وكانت توقظ فيه جميع امكانيات التلق . كان يحسها على لسانه ، في اعماق انفه وعلى عينيه . كانت بعيدة ، ، ثم مالت على زاوية الشارع بين السماء المسودة والبلاطات الدهنية والدبقة ، كأنه سحر رديء لليالي براغ . تقدم نحوها ، وكانت تغدو ، كلما تقدم ، اكثر حقيقة . كانت محتاحه بأكمله وكانت تحز عينيه بالدموع وتحلفه لا حول له ولا قوة . وعلى زاوية شارع ، أدرك السبب ، كانت امرأة عجوز تبسح خياراً مكبوساً بالخل وكانت رائحته هي التي امسكت بمرسو . وتوقف مارتاً ، واشترى خياراً لفستها له المعجوز بورقة . خطأ بضع خطوات ، ثم فتح لفسته أمام مرسو ، وقضم ببله أسنانه الخيارة التي كان لحمها الممزق السائل تفوح منه رائحة أشد .

كان مرسو منزعجاً ، فاستند على ركيزة وتنفس لحظة طويلة كل ما كان يقدمه

له العالم من غريب ومتوحد في هذه الدقيقة. ثم رحل ودخل، من غير ان يفكر، الى مطعم كان ينبعث منه لحن أكورديون. ونزل بضع درجات، وتوقف في منتصف السلم. ووجد نفسه في قبو صغير معتم كفاية ومليء بالاضواء الحمراء. لا شك ان هيئته كانت غريبة لأن الاكورديون بدأ ينغم بجفوت اكثر، ولأن الأحاديث توقفت والزبائن التفتوا نحوه. في الزاوية كانت فتيات ياكلن وشفاهن مكتنزة. وكان زبائن آخرون يشربون جعة التشيكوسلوفاكيا السمراء العذبة. وكثيرون كانوا يدخنون من غير ان يأكلوا. واحتل مرسو طاولة طويلة بما فيه الكفاية كان يشغلها رجل واحد. كان الرجل طويلا ونجيلا، اصفر الزغب، وكان مكوماً على كرسيه، ويداه في جيبه، يزم شفتيه المشققتين حول طرف عود ثقاب كان متضخماً من الريق، وكان يمصه بصوت كرهه او كان يمرره من زاوية الى اخرى من فمه. حين جلس مرسو، لم يكن الرجل يتحرك، فاستند الى الحائط، ووجه عود الثقاب ناحية القادم وثنى عينيه خفية. في هذه اللحظة رأى مرسو نجمة حمراء على عروته.

واكل مرسو قليلا وبسرعة. لم يكن جائعاً. وكان الاكورديون ينغم الآن بشكل اوضح. وكان الرجل الذي يحركه يحدق بالقادم الجديد. وفي محاولتين متكررتين، حمل هذا الأخير عينيه بالتحدي وحاول ان يثبت نظره. ولكن حثاه كانت قد أوهنته. كان الرجل ما يزال ينظر اليه. وفجأة، انفجرت احدى الفتيات بالضحك، فمص الرجل ذو النجمة الحمراء كبريته بقوة وكانت تنفتح عليها فقاعة صغيرة من اللعاب. اما الموسيقى، فقد اوقفت الرقص الصاخب الذي كان يعزف نغمته، من دون ان يتوقف عن النظر الى مرسو ليباشر لحناً بطيئاً مصفراً بكل غبار القرون. في هذه اللحظة فتح الباب امام زبون جديد. لم يره مرسو، على انه، من الفتحة، تسلفت بخفة رائحة الخلل والخبث. فملأت دفعة واحدة القبو الصغير الممتم، مختلطة بلحن الاكورديون السحري، مضخمة فقاعة اللعاب على كبريته الرجل، محملة الاحاديث فجأة

أكثرُ تعبيراً ، كما لو انه من حدود الليل الذي كان يغفو على براغ كان كل معنى العالم القديم الحبيث والمؤلّم يأتي ليلود بحرارة هذه القاعة وهؤلاء الرجال . وأحس مرسو الذي كان يأكل مربي مسكراً أكثر مما ينبغي ، والذي كان مقدوفاً فجأة حتى نهاية ذاته ، أحس ان الصدع الذي كان يحمله في نفسه يتقضبض ويفتحة على نحو أكثر رحابة على القلق والحتمى . ونهض فجأة ، ونادى النادل ، ولم يفهم شيئاً من شروحه ، ودفع بسخاء وهو يلاحظ من جديد نظرة الموسيقى المنفتحة والمهدقة ابداً فيه . وبلغ الباب . وتجاوز الرجل فلاحظ انه كان ما يزال يتأمل الطاولة التي كان قد غادرها . وادرك آنذاك انه قد كان اعمى ، وارتقى الدرجات ، واذا فتش الباب ، ووجد نفسه كله ملقى في الرائحة الحامزة ابداً ، تقدم في الطرقات القصيرة نحو اعماق الليل .

كانت النجوم تتألق فوق المنازل . لا بد أنه كان بالقرب من النهر الذي كان يسمع خريبه الاصم القوي . وامام شبكة في حائط ، سميكة مملوءة بجروف عبرية ، أدرك انه كان في الحي اليهودي . فوق الحائط كانت اغصان صفصاف ذات رائحة مسكرة تتساقط من جديد . ومن خلال الشبكة ، كان المرء يلاحظ أحجاراً ضخمة سمراء مدفونة بين الاعشاب . كانت تلك مقبرة براغ اليهودية القديمة ، وعلى بعد خطوات من هنا ، وجد مرسو نفسه من جديد ، راكضاً ، من الساحة القديمة لدار البلدية . وامام فندقه ، اضطر الى ان يستند الى حائط ، وتقبأ بجهد . وبكل الوضوح الذي يمنحه الضعف الأقصى وجد غرفته بلا ادنى خطأ ، فاستلقى ، وسرعان ما نام .

وفي اليوم التالي استيقظ على صراخ بائعي الصحف . كان الجو ما يزال ثقيلًا ، ولكن كان بالامكان التنبؤ بالشمس وراء الغيوم . وكان مرسو ، بالرغم من ضعفه الخفيف ، يحس بالتحسن . ولكنه كان يفكر بطول اليوم الذي يتقدم . ان يعيش هكذا بحضور ذاته ، معناه ان يتخذ الوقت امتداده الأقصى ، فتبدو

له كل ساعة من ساعات النهار وكأنها تضم عالماً . قبل كل شيء ، عليه ان يتجنب ازمات كالتي حدثت البارحة . ومن الافضل ان يزور المدينة بانتظام . جلس على طاولته ، بنامته ، ووضع لنفسه برنامج عمل منظم يشغل كل يوم من أيامه لمدة اسبوع . ولم ينس شيئاً . الدير والكنائس الباروكية ، المتاحف والاحياء القديمة . ثم أصلح هندامه ، ولاحظ اذ ذلك انه كان قد نسي ان يشتري مشطاً فزول ، كالبارحة ، مشعناً وصامتاً امام البواب الذي لاحظ في وضوح النهار شعره المنفذ ، وهيئته المذهولة وسررتته التي كان ينقصها الزر الثاني . وعند خروجه من الفندق ، تأثر بلحن أكورديون طفولي وحنون . كان اعمى البارحة ، في زاوية الجادة القديمة ، مقرصاً على كعبيه ، يحرك آله بالتمبير نفسه ، الفارغ المبتسم كأنما هو محرر ، من ذاته ، ومنصور كله في حركة حياة كانت تتجاوزها . وعند زاوية الشارع ، التفت مرسو ووجد رائحة الخيار ، ومعها ، قلقة .

كان هذا اليوم ما كان ينبغي ان تكونه الأيام التي تلتها . كان مرسو يستيقظ متأخراً ، فيزور أديرة وكنائس ، وكان يبحث عن ملاذ في رائحتها القبوية والبخورية ، لكنه وحين يعود الى النهار ، يلتقي خوفه الخفي مع بائعي الخيار الذين كانوا منتشرين في جميع زوايا الشارع . ومن خلال هذه الرائحة كان يرى المتاحف ويفهم غزارة وسر العبقرية الباروكية التي كانت تملأ براغ بذهبها وعظمتها : وكانت الاشعة المذهبة التي كانت تلمع برفق على المذابح في جوف الظل تبدو له مأخوذة من السماء النحاسية المكونة من ضباب وشمس والمرتفعة غالباً فوق براغ . وكانت خردوات الحازونيات والدويرات ، والديكور المعقد الذي يمكن ان نقول إنه من الورق المذهب ، كان مثيراً في شبه بمداود الطفل التي تقام في الميلاد ، وكان مرسو يحس في ذلك الضخامة والغرابة والتناسق الباروكي ، كأنه رومنسية ، محمومة ، طفولية وطنانة يدافع بها

الانسان عن نفسه ضد شياطينه الخاصة . والاله الذي كان يُعبد هنا ، هو الاله الذي يخشى ويبجل ، لا الاله الذي يضحك مع الانسان امام الاعيب البحر والشمس الودية . وحين خرج مرسو من رائحة الغبار والعدم التي كانت تخيم تحت القباب المعتمة ، كان يجد نفسه بلا وطن . وفي كل مساء ، كان يذهب الى اديرة النساك التشيكيين ، في غرب المدينة ، وفي حديقة الدير كانت الساعات تتطاير مع الحمام . وكانت الأجراس تقررع بعذوبة على العشب . ولكن كانت حَمَاه هي التي تتحدث ايضا اليه . على ان الوقت كان يمر كذلك . ولكن تلك كانت الساعة التي كانت فيها الكنائس والآثار مغلقة والمطاعم غير مفتوحة بعد . وهنا كان الخطر . كان مرسو يتنزّه على ضفاف فلثافا المليئة بالحدائق والجوقات الموسيقية في النهار المنتهي . وكانت مراكب صغيرة تصعد من جديد النهر من سد الى آخر . وكان مرسو يصعد معها ، وكان يترك الضجيج المصم وغليان هويس القناة ، ويستعيد شيئاً فشيئاً سلام المساء وسكونه ، ثم يمشي من جديد للملاقاه هدير كان يتضخم حتى الضجيج . وحين وصل الى السد الجديد ، ظل ينظر الى القوارب الصغيرة الملونة وهي تحاول عبثاً ان تجتاز السد من غير ان تنقلب ، حتى تمكن احدها من ان يجتاز النقطة الخطرة ، فعلا الصياح على صوت المياه . وكان هذا الماء المندفع والمشحون بالأصوات والانغام وروافع الحدائق ، المليء بالأضواء النحاسية لساء المغيب وبالظلال الملتوية والمتنافرة لتماثيل جسر شارل ، كان هذا الماء يحمل لمرسو الوعي المولم الحاد لوحدة بلا حماسة لم يكن للحب بعد اي مكان فيها . وحين توقف امام عطر المياه والاوراق الذي كان يتصاعد اليه ، منقبض الحلق ، كان يتخيل دموعاً لم تكن لتأتي . وكان يكفيه مجرد صديق او ذراعان مفتوحتان . ولكن الدموع كانت تتوقف عند حدود عالم بلا حنو ، كان غارقاً فيه . وفي مرات أخرى حين كان يجتاز جسر شارل ، في هذه الساعة من المساء ايضاً ، كان

يتنزه في حي هردستين ، فوق النهر ، المقفر الصامت على بضع خطوات من أكثر أحياء المدينة ازدحاماً . كان يتيه بين هذه القصور الفخمة ، ويجاذي المتنزهات الواسعة المشجرة ، المبلطة على طول الحواجز المنحوتة حول الكاتدرائية . وبين جدران القصور العالية كانت اقدامه تصدي في السكون . وكان صوت أصم يتصاعد من المدينة اليه . ولم يكن هناك بائع خيار في هذا الحي ، ولكنه أحس بشيء مقبض في هذا الصمت وهذه العظمة ، حتى ان مرسو كان ينتهي دائماً بأن يعود فيهبط نحو الرائحة او النغم اللذين كانا يكونان من الآن فصاعداً كل وطنه . كان يأكل في المطعم الذي كان قد اكتشفه والذي ظل ، بالنسبة له على الأقل ، مألوفاً . وكان مكانه أمام الرجل ذي النجمة الحمراء والذي كان يأتي فقط مساء . فشرب كأس جمعة . وعلك كبريته . وعند العشاء ، ايضاً ، كان الأعمى يعزف ، وكان مرسو يأكل بسرعة ويدفع ويعود الى فندقه نحو نوم طفل محموم لم يفتنه ليلة واحدة .

كل يوم كان مرسو يفكر في الذهاب ، وكل يوم كان يزداد غوصاً في التخلي ، فتضعف ارادته للسعادة في ان تقوده . لقد مضى عليه أربعة أيام في براغ لم يكن قد اشترى فيها بعد المشط الذي كان يحس غيابيه كل صباح . على انه كان لديه الشعور المبهم بنقص ما ، وهذا ما كان ينتظره بغموض . وذات مساء ، كان يتوجه نحو مطعمه في الطريق الصغيرة حيث التقى بالرائحة في المساء الأول . والحق انه كان قد بدأ يحسها قادمة عندما أوقفه شيء ما ، قبل المطعم بقليل ، على الرصيف المقابل وجعله يقرب . كان ثمة رجل ممدد على الرصيف مشتبك الذراعين ورأسه مائل على خده الأيسر . وكان ثلاثة اشخاص او أربعة يستندون الى حائط كما لو انهم ينتظرون شيئاً ما ، على هدوئهم الكبير . وكان أحدهم يدخن . وكان الآخرون يتحدثون بصوت خافت . ولكن رجلاً مشتمراً الاكمام ، وسارته على ذارعه ، ولبيته مرتدة الى الخلف ، يومئىء حول الجسد رقصة وحشية ، نوعاً من رقصة هندية

موقّعة ومرهقة . وفوق ، كان نور مصباح بعيد خافت جداً يتألف مع الضوء الأصم الذي كان ينبعث من المقهى على بعد خطوات . هذا الرجل الراقص بلا توقف ، وهذا الجسد ذو الذراعين المتشابكتين ، وهؤلاء المتفرجون الهادئون الى هذا الحد ، وهذا التناقض المضحك ، وهذا الصمت الجديد ، كان في ذلك كله لحظة توازن مضي مكونة اخيراً من التأمل والبراءة بين الاعيب الظل والضوء المطبقة قليلاً ، هذه اللحظة التي كان يبدو لمسوان كل شيء فيها يهوي في الجنون . وازداد قريباً . كان رأس القليل يسبح في الدم . وعلى الجرح ، كان الرأس قد انحنى ، وكان الآن يستكين في هذه الزاوية البعيدة من براغ ، بين الأشعة النادرة على البلاط الدهني ، والانزلاقات الطويلة المبتلة للسيارات التي كانت تمر على بعد خطوات من هنا ، والعودة المتباعدة النائية للحافلات الصاخبة المتباعدة . في هذه الزاوية ، كان الموت يتكشف عندها وملحاً . وكان نداؤه بالذات ونفحة الرطب هو ما كان يحسه مرسو في اللحظة التي مضى فيها بخطى كبيرة من غير ان يلوي . وفجأة ، قدمت الرائحة لتنهزه ، وكان قد نسيها ، فدخل الى المطعم وجلس على طاولته . كان الرجل هنا ، ولكن من دون كبريته . وخيل لمسوانه كان يرى شيئاً من الشرود في نظراته . وطرده الفكرة السخيفة ، التي كانت تمثل له . ولكن كل شيء كان يدور في رأسه . وقبل ان يطلب أي شيء ، هرب فجأة ، وركض حتى فندقه وارتمى على سريره . كانت لذعة حارة تحرق صدغه . كان فارغ القلب منقبض البطن وكان تمرداً ينفجر . وكانت صور من حياته تضخم عينيه . شيء ما في داخله كان يزعق وراء حركات نساء وأذرع تتفتح وشفاة دافئة . ومن اعماق ليالي براغ المؤلمة ، وسط روائح الحلل والانغام الطفولية ، كان يتصاعد اليه الوجه القلق للعالم الباروكي القديم الذي كان قد صاحب حياه . وجلس على سريره ، وهو يتنفس بجهد ، وبميون اهمى وحركات

آلة . وكان درج المنضدة مفتوحاً ومكسواً بصحيفة انكليزية قرأ فيها مقالاً كاملاً . ثم عاد فارتمى على سريره . كان رأس الرجل منحنيًا على الجرح ، وفي هذا الجرح كان بالامكان دسّ أصابع . نظر الى يديه والى أصابعه ، فانبعثت من قلبه رغبات طفل . وكانت حماسة حادة وخفية تتفاقم فيه مع الدموع ، فاذا هو حنين الى مدن مليئة بالشمس والنساء مع امسيات خضراء تضمم الجروح . وانفجرت الدموع . وفي نفسه ، كانت بحيرة كبيرة من الوحدة والصمت تتسع ، وعليها كان ير كض لحن خلاصه الحزين .



## الفصل الثاني

في القطار الذي كان يقوده نحو الشمال ، كان مرسو يتأمل يديه . كانت السماء تنبئ بمعاصفة كان جري الترام يثير فيها موجة من الغيوم المنخفضة الثقيلة . وكان مرسو وحده في هذه الحافلة المفرطة السخونة . كان قد ذهب مسرعاً في الليل ، وإذ أصبح الآن وحيداً أمام الصبيحة القائدة ، كان يترك لكل عدوية هذا المنظر البوهيمي ان تتسلل إلى نفسه ، حيث كان انتظار المطر بين الصفصافات الحربية العالية ومداخن المعامل البعيدة يخلف ما يشبه الرغبة في الدموع . وكان ينظر إلى اللاتمة البيضاء بمباراتها الثلاث: « من الخطر الإنحناء إلى الخارج » . ومن هنا ، كانت يداه ، أشبه بمجوانين وحشيين نابضين على ركبتيه ، تناديان نظراته . احدهما ، اليسرى ، كانت طويلة لدنة ، والأخرى كثيرة العقد وعاضلة . كان يعرفها ، وكان يتعرف اليها ثانية ، وفي الوقت نفسه كان يشعر بهما متبايزتين ، كأنما هما جديرتان بأعمال لم يكن لارادته أي شأن فيها . وقد أقبلت احدهما تستند إلى جبينه لتقيم حاجزاً للحمى التي كانت تطرق صدغيه . وانزلت الأخرى على طول سترته وانسلت إلى جبينه لتأخذ لغافة ، ولكنها ما لبثت ان أرتدت إذ وعى هذه الرغبة في التقيؤ التي كانت تخلقه واهناً بلا قوة . وإذ عادتا إلى ركبتيه ، أستسلمت يداه ، وأخذت راحتاه شكل كأس . فقدمتا لمرسو وجه حياته وقد أرتدت إلى اللامبالاة ووهبت نفسها لكل من كان يريد أخذها .

وسافر لمدة يومين . ولكنه في هذه المرة . لم تكن غريزة الهرب هي التي تدفمه . كانت رتابة هذا السباق نفسها تغمره . وكانت هذه الحافلة التي تقوده

خلال نصف أوروبا تتركه بين عالمين . لقد أستقلتها وهو على وشك ان يغادرها . كانت تسجنه خارج حياة كان يريد ان يحو حتى ذكرها لكي تقوده إلى عتبة عالم جديد تصبح فيه الرغبة ملكة . ولم يضجر مرسو مرة واحدة . كان يقبع في زاويته ، يكاد لا يُزعجه شيء . وكان ينظر إلى يديه ، ثم إلى المنظر ، ويفكر . وراق له ان يمدّ رحلته حتى برسوا ، لا يقوم إلا يجهد يسير عند الجمر ليبدل التذكرة . كان يريد ان يستمر بعد في مواجهة حريته . كان تعباً ، ولم يكن يحس في نفسه القدرة على التحرك . كان يتلقى في ذاته أصغر أجزاء قوته وادقّ آماله ، وكان يشدّها ويعيد جمعها ، وفي ذاته كان يعيد صنع ذاته ، ويصنع مصيره الآتي في آن واحد . كان يحب هذه الليالي الطويلة التي ينسحب فيها القطار على السكك الزلقة ، ومروره العاصف في المحطات الصغيرة حيث الساعة وحدها مضيئة ، وانكباحه المفاجيء قبل أضواء المحطات الكبيرة هذا الوكر الذي ما يكاد يلاحظ حتى يكون قد بدأ يتلغ القطار ويصبّ في حافلاته ذهبه الوافر وضوءه وحرارته . وكانت مطرقات تزن على الدواليب ، وكانت القاطرة تمحّم بكل بخارها ، وكانت حركة العامل الآلية ، وهو يخفض قرص المرور الأحمر ، تقذف مرسو في السباق المجنون للترام حيث كان صحوه وقلقه وحدهما يسهران . ومن جديد كان تلاعب الظلال والأضواء المتشابك في الحافلة ، وغطاء السواد والذهب . درس ، بوتزن ، غرليتز ، ليفنتز ، وكان طوال الليل وحيداً بمواجهة ذاته ، مالكا كل وقته ليشكل حركات حياة قادمة ، وكان الصراع الصبور مع الفكرة التي تهرب عند منعطف محطة ، ثم تستسلم فيقبض عليها وتطارده ، وتلتحق بمحصلاتها ثم تهرب ثانية أمام رقص الأسلاك الملتزمة بالمطر والأضواء . كان مرسو يبحث عن الكلمة أو الجملة التي ستعبر عن أمل قلبه والتي سينتهي فيها قلقه . وفي حالة الضعف التي كان يعانيتها ، كان بحاجة إلى صيغ . وكان الليل والنهار ينقضيان في هذا الصراع العنيد مع الفعل والصورة اللذين سيحدان بعد الآن لون نظرتة كله أمام الحياة ، والحلم المجنون

أو الشقي الذي يكوته عن مستقبله . كان يغمض عينيه . إن المرء بحاجة إلى وقت لكي يعيش ، وككل عمل فني ، تتطلب الحياة من المرء ان يفكر بها . وكان مرسو يفكر بحياته وينزهه وعيه المضطرب وارادته للسعادة في حافلة كانت في تلك الأيام ، بالنسبة له في اوربا ، شبيهة باحدى تلك الحجرات التي يتعلم فيها الانسان ان يعرف الانسان عبّر ما يتجاوزه .

وفي صباح اليوم التالي ، وبالرغم من البلد المنبسط ، فان القطار يتباطأ بشكل ملحوظ . كان على بعد ساعات من برسلو ، وكان النهار يتفتح على سهل سيليزي الطويل ، حيث لا شجرة ، اللزج من الوحل ، تحت سماء يغطيها ويلاها المطر . وعلى مد البصر وعلى مسافات منتظمة ، كانت طيور كبيرة سوداء ذات أجنحة براقه تطير أمراباً على ارتفاع أمتار من الأرض ، عاجزة عن الارتفاع أعلى من ذلك تحت السماء الثقيلة كالبلاطة . كانت تحوم دوائر في طيران بطيء وثقيل ، واحياناً كان احدها يخرج عن السرب ، فيلامس الأرض ، حتى ليختلط بها ، ويتماد بالطيران اللزج نفسه إلى ما لا نهاية حتى يبتعد مسافة كافية البعد لكي ينفصل كنقطة سوداء في السماء المبتدئة .

وكان مرسو قد مسح بيديه بخار الزجاج ، وكان ينظر بشغف ، من خلال الخطوط الطويلة التي كانت أصابعه قد تركتها على الزجاج . ومن الأرض الكدرة حتى السماء الفاقدة اللون ، كانت ترتفع في نفسه صورة لعالم جاحد كان ، لأول مرة ، يعود أخيراً إلى ذاته . وعلى هذه الأرض المعادة إلى يأس البراءة ، كان مسافراً تائهاً في عالم بدائي ، يستعيد روابطه ، وبقبضة مشدودة إلى صدره ، ووجه مسحوق على الزجاج ، كان يمثل أندفاعه نحو ذاته ونحو اليقين بالعظمة التي كانت تنام في نفسه . كان يود لو ينسحق في هذا الوحل ، ويفغوص في الأرض بهذا الحمام من الصلصال وينتصب على السهل الذي لا حدود له ، معطى بالوحل مشرع اليدين امام سماء الاسفنج والشحم ، كأنما هو في وجه رمز الحياة الموثس

الرائع ، يؤكد تضامنه مع العالم في أشد صورته تنقيراً ، ويعلم عن نفسه شريكاً للحياة حتى في جحودها وقذارتها . وأخيراً انفجر الاندفاع الهائل الذي كان يستبدّ به لأول مرة منذ رحيله . وسحق مرسو دموعه وشفتيه بالزجاج البارد . ومن جديد ، تعبّث الزجاج وأختفى السهل .

بعد ساعات ، كان يصل إلى برسلو . ومن بعيد بدت له المدينة كغابة من مداخن المعامل وقبب الكندراثيات . ومن قريب ، كانت مبنية من القرميسد والاحجار السوداء . وكان رجال الخوذات ذات المقدمات القصيرة يسرون على مهل . وقد تبعمهم ، وأمضى الصبيحة في مقهى عمالي ، كان شاب يمزف فيه على الهرمونيكا : الحاناً ذات بلادة قوية وثقيلة تريح النفس . وقرر مرسو ان يعود فيهبط نحو الجنوب ، بعد ان يكون قد اشترى مشطاً . وفي اليوم التالي ، كان في فيينا ، فنام قسماً من النهار والليل بأكمله . وعندما أستيقظ ، كانت الحمى قد سقطت كلياً . وأتخم نفسه بالبيض برشت والقشدة الطازجة عند الفطور ، ثم خرج وقلبه مُعْتَرّ بعض الشيء ، في صبيحة تخترقها الشمس والمطر .

كانت فيينا مدينة منعشة . ولم يكن فيها شيء يُزار . كانت كاتدرائية القديس اتيان المفرطة الضخامة تضجّره . وقد فضلّ عليها المقاهي التي كانت تواجهها ، وفي المساء ، مرقصاً صغيراً امام ضفاف القنال . وفي النهار كانت يتنزّه على طول « الرنغ » ، وسط ترف الواجبات الجميلة والنساء الانيقات : كان يتمتع ، ردهاً من الزمن ، بهذا الديكور الخفيف المسترف الذي يفصل الانسان عن ذاته في مدينة هي أقلّ المدن طبيعية في العالم . ولكن النساء كن جميلات ، وكانت الأزهار نامية باهرة في الحدائق ، وعلى « الرنغ » ، في المساء الهابط ، بين الجمع المتألق الرخي الذي كان يتنزّه ، كان مرسو يتأمل ، على قمة الانصاب ، الانطلاق المبني للخيل الحجرية في المساء الأحمر . آنذاك فقط تذكر روز وكليز ، صاحبتيه . ولأول مرة منذ رحيله ، كتب رسالة . والحقيقة ان

فيض صمته هو ما كان ينسكب على الورق .

« صغيرتي » :

أكتب اليكما من فيينا . لا أدري ما ألتما اليه . أما أنا ، فإنني أكسب حياتي بالسفر . رأيت بمرارة قلب كثيراً من الأشياء الجميلة . هنا ، اخلى الجمال المكان للحضارة . وهذا مريح . انني لا أزور كنائس ولا امكنة اثرية . انني اتزده على « الرنخ » . وحين يأتي المساء فوق المسارح والقصور الباذخة ، يلقي انطلاق الخيول الحجرية الاعشى عند المقيب الأحمر في نفسي مزيجاً فريداً من المرارة والسعادة . في الصباح أفطر بيضاً برشت وقشدة طازجة . أنهض متأخراً ، والفندق يحيطني بمجاملاته ، انني متأثر لأسلوب رؤساء خدم الفندق ومتخم بالطعام اللذيذ ( أوه ما اطيب هذه القشدة الطازجة ا ) . يوجد هنا مناظر جميلة ونساء جميلات . ولا تنقصني إلا شمس حقيقية .

ما الذي تفعلانه ؟ تحدثنا عنكما وعن الشمس الى المسكين الذي لا يمسه شيء في أي مكان والذي يظل صديقكما المخلص : باتريس مرسو .

ذلك المساء ، حين انتهى من الكتابة ، عاد الى المرقص . كان قد حجز لنفسه السهرة مع إحدى الساقيات ، هيلين ، التي كانت تعرف بعض الفرنسية وتفهم ألمانيته الرديئة . وحين خرج من المرقص في الثانية صباحاً ، أعادها الى منزلها ، وفعل الحب كأحسن ما يفعل في العالم ، ووجد نفسه في الصباح ، عارياً ، في سرير غريب ، ملتصقاً بظهر هيلين التي كان يتأمل بلا مبالاة وابتهاج رديفها الطويلين وكتفها العريضتين . وذهب من غير ان يريد إيقاظها ، ودرس ورقة في احد حذائها . وفي اللحظة التي بلغ فيها الباب سمع من يناديه : « ولكنك يا حبيبي قد اخطأت » . فعاد نحو السرير : كان قد اخطأ بالفعل ، فقد كان يجهل العملة النمساوية ، لذلك فقد ترك ورقة بخمسة شلنغ بدلاً من مئة . قال وهز يبتسم : « لا . إنها لك . لقد كنت لطيفة جداً » . والتمع وجه هيلين ، المنقط

بالتمش تحت الشعر الاشقر والمشعث ، بابتسامة . وفيجأة انتصبت واقفة على السرير وقبلته على الحدين . وفجرت هذه القبة ، الاولى بلاشك التي اعطته اياها من كل قلبها ، فجرت في مرسو دفعة من التأثر . فألقاها على السرير وغطاها ، ثم رجع الى الباب ونظر اليها وهو يبتسم . قال : « وداعاً » . وجحظت الاخرى بعينها فوق الغطاء المرفوع تحت الانف وتركته يختمى من غير ان تجد كلمة .

وبعد أيام تلقى مرسو جواباً مؤرخاً من مدينة الجزائر :

«عزيزنا باتريس .

نحن في مدينة الجزائر . ستكون صغيرناك سعيدتين جداً لرؤيتك من جديد . فاذا لم يكن ثمة ما يسكك في أي مكان ، فتعال الى الجزائر . اننا نستطيع ان ننزلك في « البيت » . اما نحن ، فسيعدتان : اننا طبعاً نشكو بعض الخجل ، ولكن ذلك بالأحرى بسبب اللياقة . وان لذلك ايضاً علاقة بالاحكام المسبقة . اذا كنت مهتماً بان تكون سعيداً ، فتعال جرب ذلك هنا . فهذا أفضل من ان تكون ضابط - صف مجدد التطوع . نقدم جبهتنا لقبلاتك الأبية .

روز ، كلير ، كاترين . »

ملاحظة - تحتج كاترين على كلمة « أوي » كاترين تسكن معنا ، وستكون ، إن اردت ذلك ، صغيرتك الثالثة . »

وقرر أن يعود الى مدينة الجزائر عن طريق جنوى . وكما يحتاج آخرون الى عزلة قبل ان يتخذوا قراراتهم الخطيرة ويلعبوا اللعبة الاساسية لحياة ما ، فقد كان هو ، المسم بالوحدة والغرابية ، بحاجة الى ان يحتمي بالصدقة والثقة وان يتذوق اماناً ظاهراً قبل ان يبدأ لعبته .

وفي القطار الذي كان يقفه الى جنوى عن طريق ايطاليا الشمالية ، كان ينصت الى آلاف الاصوات التي كانت تقني فيه نحو السعادة . وعند أول

شجرة شربين منتصبه على الأرض الطاهرة ، كان قد ارتحى . كان ما يزال يحس ضعفه وحمّاه . ولكن شيئاً ما في نفسه كان قد استرخى وتمدد . وفيما بعد ، بقدر ما كانت الشمس تتقدم في النهار ويقترّب البحر ، تحت السماء الكبيرة المتوهجة المتحفزة حيث تسيل على شجرات الزيتون المرتعشة انهار من الهواء والضوء ، كان الهوس الذي يحرك العالم يتجاوب مع حماس قلبه . وكان صوت القطار والثروة الطفولية التي كانت تحيط به في المقصورة المكتظة ، وكل ما كان يضحك ويغني حوله ، يتناغم ويصاحب نوعاً من الرقص الداخلي ألقاه ، لمدة ساعات ، جامداً في أربعة أرجاء المعمورة ثم صبه أخيراً مبتهجاً منذهلاً في جنوى المصمّة التي كانت تنفجر صيحة أمام خليجها وسمائها، حيث كانت اللذة والكسل يتصارعان حق المساء . كان متعطشاً للحب والمتعة والتقبل . وقد ألقته الآلهة التي كانت تحرقه ، في البحر ، في زاوية صغيرة من المرفأ ، حيث تذوق القطران والملح بمزوجين ، وأضاع أقصى مداه لفرط ما سح . وتاه فيما بعد في الطرقات الضيقة المليئة بروائح الاحياء القديمة ، وترك الألوان تزأر من أجله ، والسماء تستنفذ نفسها فوق البيوت تحت وطأة شمسها ، والقطط ترتاح بسين القذارات والصيف . ومضى الى الطريق التي تشرف على جنوى ، وترك البحر كسله المحمل بالعطر والأضواء يصعد اليه ، في انتفاخ طويل . وكان يحضن الحجر الساخن الذي كان قد جلس عليه ، وهو يغمض عينيه ، ليفتحها على هذه المدينة التي كان زخم الحياة فيها يزجر بسدوق رديء مهيج . وفي الأيام التي تلت ، كان يحب ايضاً ان يجلس على الحاجز الذي ينحدر نحو المرفأ ، وعند الظهر كان ينظر الى الفتيات الصبيات يمررن عائدات من المكاتب الى المرفأ . كانت الفتيات ينتعلن الصنادل ، محرّرات النهود في اثواب زاهية خفيفة ، فكن يتركن مرسو جاف اللسان خافق القلب برغبة كان يجد فيها في آن واحد حرية وتبريراً . وفي المساء ، كانت النساء أنفسهن ، هن اللواتي كان يلتقي بهن في الطرقات ، فيتبعهن يرافقه في أحشائه الوحش الحمار



الملثف بالرغبة الذي كان يتحرك بعذوبة ضارية . وخلال يومين ، تحرق في هذه الحميا اللانسانية . وفي اليوم الثالث غادر جنوى الى مدينة الجزائر .

وطوال الرحلة ، كان يتأمل الاعيب الماء والضوء ، في الصباح ، وفي قلب النهار وفي المساء على البحر ، فيؤلف قلبه مع دقائق السماء البطيئة ويعود الى ذاته . كان يحذر من ابتذالية بعض الشفاءات . وحين كان يتمدد على الجسر ، كان يدرك انه لم يكن له ان ينام بل ان يسهر ، ان يسهر ضد الاصدقاء ، وضد رفاهية النفس والجسد . ولقد كان عليه ان يبني سعادته وتبريره . وستكون المهمة الآن بالنسبة له أيسر بلا شك . وحيال السلام الغريب الذي كان ينفذ اليه امام المساء الذي يندو فجأة اكثر رطوبة على البحر ، والنجمة الأولى التي تقسو ببطء في السماء حيث كانت الاشعة تموت خضراء . لتجيا من جديد صفراء ، حيال ذلك كله ، كان يحس بعد هذا الصخب الكبير وهذه العاصفة ان ما كان في نفسه غامض ورديء يرسب ليبقى من بعده الماء الصافي الشفاف لنفس تعود الى الطيبة والعزم . كان يرى بوضوح . وكان قد أمثل طويلا بحب امرأة . على انه لم يكن قد صنع من اجل الحب . فخلال حياته ، في مكتب الرفأ ، وغرفة نومه ، ومطعمه وعشيقته ، كان قد لاحق ، يبحث فريد ، سعادة كان في اعماق ذاته ، وكجميع الناس ، يعتقدونها مستحيلة . كان قد لعب لعبة إرادة ان يكون سعيداً . ابدأ لم يكن قد أرادها بتصميم واع محرر . ابدأ وحتى الآن . وابتداء من هذه اللحظة ، وبسبب حركة واحدة محسوبة بكل وعي ، كانت حياته قد تغيرت ، وكانت السعادة ممكنة . كان بلا شك قد ولد في الآلام هذا الكائن الجديد . ولكن اية قيمة كانت له اذا قيس بالمهزلة المهينة التي كان يلعبها فيما مضى . كان يرى مثلاً ، ان ما كان قد شده الى مارت ، كان الغرور اكثر مما كان الحب ، بما في ذلك معجزة الشفتين اللتين كانت تمدها له ، تلك المعجزة التي لم تكن سوى الدهشة الفرحة لقدرة كانت تتعرف على ذاتها وتفتح على الانتصار . وكل تاريخ حبه كان في الحقيقة استبدال هذه

الدهشة الأولية بيقين ، وتواضعه بغرور . كان قد أحب فيها هذه الأمسيات التي كانا يظهران فيها في دور السينما والتي كانت الانظار تتجه فيها نحوها ، وتلك اللحظة التي كان يقدمها فيها الى العالم . كان يحب فيها ذاته وقدرته وطموحه لأن يحيا . ولعل لذته نفسها ومذاق جسده كله العميق ربما كان صادراً من هذه الدهشة الأولى لامتلاك جسد جميل جمالاً فريداً ، والسيطرة عليه واذلاله . والآن كان يدرك انه لم يكن مصنوعاً لهذا الحب ، بل للحب البريء العنيف لإله اسود سيتعبده بعد الآن .

وكما يحدث غالباً ، كان احسن ما في حياته قد تركّز حول أسوأ ما قد كان فيها : كليز وصديقاتها، وزغرو وإرادته للسعادة حول مارت. وكان يدرك الآن ان على ارادته للسعادة ان تتقدم . ولكن لأجل ذلك كان يدرك ان عليه ان يتوافق مع الزمن، وان امتلاك الوقت كان في آن واحد اجمل التجارب ، واطرها، والبطالة ليست شؤماً الا على الاردياء. بل ان كثيرين لا يستطيعون ان يثبتوا انهم غير أردياء . وكان هو قد امتلك هذا الحق . ولكن كان ما يزال يفتقر الى اقامة الدليل . شيء واحد كان قد تغير . كان يحس نفسه حراً تجاه ماضيه ، وتجاه ما كان قد فقده . لم يكن يريد إلا هذا الحصر وهذا الحيز المعلق في ذاته ، وهذه الحميا الواعية الصبور أمام العالم .

كان بود فقط ان يضم حياته بين يديه ، كما يُضفط خبز حارّ ويُنهك ، او كما فعل في ليلتي القطار الطويلتين اللتين كان يستطيع ان يتحدث فيهما مع نفسه ويتبها للحياة . كان بود ان يلحس حياته كقطعة حلوى ، ان يكونها ، ان يشجدها واخيراً ان يحبها . هنا ، كان يكمن كل هواه . وحضور ذاته هذا لذاته كان جهده بعد الان مبذولاً لكي يبقيه امام جميع وجوه حياته ، حتى مقابل وحدة كان يدرك الان كم هو صعب احتمالها . إنه لن يخون أبداً . فعنده كلته كان يساعده في ذلك ، والنقطة التي كان يحملها اليها ، كان حبه يلتقي عندها كشهوة جائعة للحياة .

كان البحر يتكسر بهدوء على جوانب المركب . وكانت السماء تمتليء بالنجوم ، وكان مرسو صامتاً يحس في نفسه قوى فائقة عميقة ليحب هذه الحياة ويمعجب بها ، هذه الحياة ذات الوجه المصنوع من الدموع والشمس ، هذه الحياة في الملح والحجر الحار ، وكان يخيّل له ان جميع قوى الحب واليأس لديه ستتضافر لكي تداعبها . وهنا كان يكمن فقره وغناه الفريد . كان ذلك كما لو أنه ، انطلاقاً من الصفر ، كان يستأنف اللعبة ، ولكن مع وعيه لقواه وللحمى الواعية التي كانت تضغط عليه في وجه مصيره .

وبعد ذلك كانت مدينة الجزائر ، والوصول البطيء عند الصباح ، وشلال القصبه الباهر فوق البحر ، والتلال والسماء ، والجون بذراعيه المبسوطتين ، والبيوت بين الاشجار ورائحة المرافئ التي بدأت تقترب . وإذ ذاك لاحظ مرسو أنه ، منذ فيينا ، لم يكن قد فكر مرة واحدة بزغرو على أنه الرجل الذي كان قد قتله بيديه . وعرف في نفسه ملكة النسيان ، تلك التي لا يمتلكها إلا الطفل ، والمعقري والبريء . وبريئا ، مبلبلا بالفرح ، أدرك أخيراً انه كان مخلوقاً للسعادة .

## الفصل الثالث

يتناول باتريس وكاترين فطورهما تحت الشمس ، على السطیحة . ترتدي  
كاترين ثياب السباحة ، و«الفتی» ، كما تدعوه صديقاته ، يرتدي « السلیب » ،  
وحول عنقه منشفة. إنها يأكلان بندورة مع الملح ، وسلطة البطاطا ، وعسلا  
وفاكهة بكمية كبيرة ، ويضعان دراقاً لیبرد فی الثلج، وحين یرفعانه ، یلحسان  
قطرات العرق عن زغب القشرة المخملی . كما أنها یعدان عصیر العنب ویشربانه  
وهما یرفعان وجهیها نحو الشمس من أجل تسمیرهما ( على الأقل باتريس الذي  
كان یعلم ان السمرة فی صالحه . )

قال باتريس ، وذراعه ممدودة نحو كاترين :

– استنشقي الشمس .

ولحست الذراع ، وقالت :

– اجل ، استنشقي انت ايضاً .

فاستنشقت ثم تمدد وهو یلامس خاصرتیه .. اما هي فقد استلقت على بطنها  
وأنزلت ثيابها حتى كليتيها .

– هل أنا فاحشة ؟

قال الفتی الذي لم یکن ینظر :

– لا .

وسالت الشمس وتباطأت على وجهها ، كانت مسامه رطبة بشكل طفيف ،  
فأخذ يتنفس هذه النار التي كانت تغمره وتتيمه . وخمرت كاترين شمسا  
وتأوتت وأنت ، ثم قالت :

— هذا اللذيذ .

قال الفتى :

— نعم .

كان البيت معلقاً عند قمة تلة كان الجون يُرى منها . وفي الحي ، كانوا  
يسمونه « بيت الطالبات الثلاث » . وكان يصعد اليه بطريق شديد الوعورة  
يبدأ في شجرات الزيتون وينتهي بها . وفي وسطه ، كان يشكل نوعاً من  
المنبسط ، على طول حائط رمادي مغطى برسوم داعرة واستشهادات سياسية ،  
كانت قراءتها تعيد التنفس للمسافر المنهوك . وبعد ذلك ، كانت شجرات  
الزيتون أيضاً ، وغسيل السماء الأزرق بين الاغصان ، ورائحة المصطكا على  
طول الحقول المحمرة حيث كانت أقمشة بنفسجية صفراء وحمراء تجف . وكان المرء  
يصل ، وقد غرق في ضيق شديد من العرق والتنفس ، ويدفع حاجزاً صغيراً  
أزرق وهو يتعاشى مخلب الجهنميات ، ويبقى عليه أيضاً ان يتسلق سلباً واقفاً  
كسبية ، ولكنه مغطى بظلال زرقاء كان بالامكان عندها تخفيف العطش . وكانت  
روز وكليو وكاترين والفتى يسمونه « البيت أمام العالم » . كان مشرعاً  
بأكمله على الطبيعة ، فكان كسلطة منطاد متديلاً في السماء الباهرة فوق رقص العالم  
الملوّن . وابتداء من الجون حتى المنحنى الكامل ، في الاسفل ، كان نوع من الارتفاع  
يمزج الاعشاب والشمس ويحمل الصنوبر والشربين والزيتونات المغبرة والاو كالبتوس  
حتى اقدام البيت . وفي قلب هذه الهبة كانت تزدهر ، وفقاً للفصول ، زهور  
النسرين البيضاء ، والميموزا ، وزهور العسل هذه التي كانت تترك عطرها يصعد من  
جدران البيت في أمسيات الصيف . كان « البيت أمام العالم » بنفسيله الأبيض

وسقوفه الحمراء، ويابتسامات البحر تحت السماء المشبوكة بلائسية من أول الأفق حتى منتهاه، يشرع عنبياته العريضات على هذا المعرض من الألوان والاضواء. ولكن، في البعيد، كان خط من الجبال العالية البنفسجية يلتقي بالجون عند منحدره الأقصى فيحتوي هذه النشوة في رسمها البعيد. واذ ذلك، لا يمكن لأحد ان يتأفف من الطريق الشاق ومن التعب . كان على المرء كل يوم ان يكتسب فرحه .

ان يعيش الانسان هكذا أمام العالم ، وان يحس ثقله وان يرى وجهه يشرق كل يوم ثم يخبو للغد، ويحترق بكل شبابه ، فقد كان ذلك يمنح سكان البيت الأربعة وعيا بحضور كان بالنسبة لهم حكماً وتبريراً . فالعالم ، هنا ، كان يصبح شخصاً ، وكان يُحسب بين أولئك الذين نستمد منهم النصيحة بقبول اسكتر ، أولئك الذين لم يقتل التوازن عندهم الحب كانوا يتخذونسه شاهداً :

كان باتريس يقول في معرض أيّ حديث : «أنا والعالم ، لا نقرّكم »

اما كاترين التي كان العري بالنسبة لها يعني التخلص من الاحكام المسبقة ، فقد كانت تفيد من غياب الفقه لتتعزى على السطحية ، وتتأمل تبدل الوان السماء . وكانت تقول ، على الطاولة، بلهجة من الغرور الحسي :

– كنت عارية أمام العالم .

وكان باتريس يقول باحتقار :

– اجل . ان النساء يفضلن بالطبع افكارهن على أحاسيسهن .

وعندها كانت كاترين تغفز لأنها لم تكن تريد أن تكون مثقفة . وكانت روز وكلير تصرخان معاً :

– اسكتي كاترين ، انك على خطأ .

ذلك انه كان من التعارف عليه ان كاترين كانت دائماً على خطأ ، مادامت هي التي كان الجميع يحبها بالطريقة نفسها . لقد كانت تملك جسداً وازناً ومرسوماً، بلون الخبز المحروق، وكان لديها الغريزة الحيوانية بكل ما هو أساسي في العالم . ولم يكن احد أجدر منها بتمييز اللغة العميقة للأشجار والبحر والهواء .

وكانت كليز تقول ، وهي تأكل بلا انقطاع :  
- هذه الصغيرة ، هي احدى قوى الطبيعة .

ثم كان الجميع يذهبون ليتدفأوا بالشمس ويصمتوا . ان الإنسان يحط من قوة الانسان. في حين ان العالم يتركها بكرة . ولقد كانت روز وكلير وكاترين وباتريس ، عند نوافذ بيتهن ، يعيشون في الصور وفي الظاهر ، وكانوا يرتضون هذا النوع في اللعب الذي كانوا يعقدونه في ما بينهم ، وكانوا يضحكون للصدقة كما يضحكون للحنو ، ولكن عندما كانوا يمثلون من جديد أمام رقص السماء والبحر ، كانوا يجدون اللون الحفي لمصيرهم فيتلاقون اخيراً باعق ما في ذواتهم . وكانت القطط احياناً تأتي لتلتحق بأسيادها . كانت « غولا » تتقدم ، مهانة باستمرار ، نقطة استفهام سوداء بعينين خضراوين ، نحيفة وناعمة ، مأخوذة فجأة بالجنون ، متخبطة ضد اشباح . وكانت روز تقول :

- « انها مسألة غدد صماء . »

ثم كانت تضحك ، فأنحمت نفسها كلها لضحكها ، شعرها المجدد ، وعينها المزمومتين البتجتين وراء نظارات مستديرة ، حتى تقفز عليها غولا (وهذه خطوة خاصة ) . وحين تمر أصابعها التائهة على الوبر اللامع ، تلين روز ، وتسترخي . واذ تصبح قطة ذات عينين ناعمتين ، تهديء الوحش بيسدين لطيفتين أخويتين . ذلك ان القطط كانت الباب الذي تخرج منه روز الى العالم ، كما كان العري



باب كاترين . وكانت كلير تفضل القط الاخر الذي هو « كالي » . كان هادئاً ساذجاً كوبره الأبيض المتسخ ، وكان يستسلم للتعذيب ، وكانت كلير ذات الوجه الفلورنسي ، تحس آنذاك بروحها رائحة . كانت صموتاً ومعلقة على ذاتها ، تتخللها انفجارات مفاجئة ، وكانت تملك شهية جيدة . وكان باتريس يراها تسمن فيويخها .

كان يقول :

— انك تبعثين فينا القرف : ان كائناً جميلاً لا يحق له أن يقبح .

ولكن روز كانت تتدخل :

— متى سنتهي من معاكسة هذه الطفلة ؟ كلي يا اختي كلير .

وكان اليوم يدور من الشروق حتى المغرب حول التلال وعلى البحر تحت الشمس اللطيفة . كانوا يضحكون ، وينكتون ويضعون المشاريع . كل منهم يتسم للمظاهر ويتظاهر بأنه يخضع لها . وكان باتريس يتنقل من وجه العالم الى وجوه النساء الشابات الرصينة الباسمة . وكان أحياناً يندهش من هذا الكون المنبعث حوله : ثقة وصدقة ، شمس وبيوت بيضاء ، ظلال من الفروق لا تكاد تسمع ، هنا كانت تولد سماعات بكر كان يقيس صداها الدقيق . وكانوا يقولون فيما بينهم ان « البيت أمام العالم » ليس بيتاً يتسلى فيه المرء ولكنه بيت يكون فيه المرء سعيداً . وكان باتريس يحس ذلك جيداً ، عندما تكون الوجوه متجهة نحو المساء ، فيفتحون نفوسهم جميعاً ليدخلها ، مع آخر نسمة ، الاغراء الانساني الخطر في ان لا يشبه المرء شيئاً .

ذهبت كاترين ، هذا اليوم بعد حمام الشمس ، الى المكتب ، فقالت روز وقد انبثقت فجأة :

— عزيزي باتريس ، لديّ خبر سارّ أعلنه لك .

في الغرفة - السطحية ، كان الفتي متمدداً بشجاعة على أريكة ، في هذا اليوم ، وبين يديه رواية بوليسية . قال :

- يا عزيزتي روز . انني أصغي إليك .

- ان هذا اليوم هو دورك للطبخ .

قال باتريس من غير ان يتحرك :

- حسناً .

وذهبت روز ، حاملة حقيبتها المدرسية ، التي وضعت فيها بلامتياز فليفلة الغداء ومجلد « التاريخ » الجزء الثالث ، المضجر ، مؤلفه لافيس .

وأخذ باتريس ، الذي كان عليه ان يطبخ فاصوليا ، يتسكع حتى الساعة الحادية عشرة ، فيتأمل الغرفة الكبيرة بحيطانها الممطرة ، المفروشة بالأرائك والرفوف والاقنعة الخضراء والصفراء والحمراء ، وبالطنافس الحمرية ذات التخطيطات البرتقالية ، ثم غلى العدس بمفرده ، ووضع الزيت في القدر ، وبصلة للتطرية وبندورة وإريباناً محشواً ، وانهمك وهو يلعن غولا وكالي اللذين كانا يحتجتان من فرط الجوع ، بالرغم من ان روز قد شرحت لهما البارحة قائلة :

- يجب ان تعلمي ، ايها القطان ، ان الجو في الصيف هو أشد حرارة من ان يشعر فيه أحد بالجوع .

قبل الظهر بربع ساعة ، وصلت كاترين ، مرتدية فستاناً خفيفاً وصندلاً مكشوفاً . وكانت بحاجة الى حمام بارد وحمام شمسي ، ولهذا فستكون آخر من يجلس الى المائدة ، وستقول روز بقسوة .

- انك غير محتملة ، كاترين .

والماء يصفر في الحمام ؛ وما هي كلير تقول لاهنة :

- هل تطبخ عدساً ؟ إن لدي وصفة جيدة جداً .

- انني اعرف . آخذ زبدة طازجة .. إنك تكررّين كلامك يا عزيزتي  
كلير .

والواقع ان جميع وصفات كلير تبدأ دائماً بالزبدة الطازجة .

قالت روز القادمة لتوها :

- انه على حق .

قال الفتى :

- نعم .. لنجلس الى الطاولة .

أكلوا في مطبخ هو في الوقت نفسه مخزن للوازم . وكان فيه كل شيء حتى  
مفكرة لتسجيل نكات روز . قالت كلير :

- لنكن لاثقين ، ولكن بسطاء .

وأكلت سجقها بأصابعها . ووصلت كاترين بتأخير ملائم ، ثملة مكتئبة ،  
شاحبة العينين من النعاس . ولم يكن في روحها ما يكفي من المرارة لتفكر  
بمكتبها - ثماني ساعات تنتزعها من العالم ومن حياتها لتمنحها الى آلة كتابة .  
وصديقاتها يدركن ويفكرون بما عساها ستكون حياتهن اذ تبتراها هذه الساعات  
الثماني ، وكان باتريس صامتاً .

قالت روز ، التي لا تحب ، مظاهر الحنان والمطف :

- إن هذا في الواقع يشغلك . ثم انك قبل كل شيء تحدثيننا عن مكتبك  
كل يوم .. أننا نحرملك حق الكلام .

وتأوهت كاترين قائلة :

- ولكن ...

- بالتصويت ، في هذه الحالة . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، الأغلبية ضدك .

قالت كلير :

- إنك ترين .

ووصل العدس ، مفرط الجفاف . فأكلوا جميعاً بصمت . عندما تطبخ كلير ،  
تتذوق الطعام على الطاولة ثم تضيف دائماً بلمحة راضية :

- ولكن هذا ممتاز ا

أما باتريس ، الذي يحافظ على رصانته ، فيفضل السكوت حتى اللحظة التي  
ينفجر فيها الجميع بالضحك . وكاترين التي لم تكن ذلك اليوم موفقة في  
خيالاتها ، ولكنها كانت تريد الحصول على اسبوع عمل بأربعين ساعة ، فقد  
طلبت منهم ان يرافقوها الى « الاتحاد العام للعمل » .

قالت روز :

- لا ، انك انت التي تعملين ، بعد كل حساب .

وذهبت « قوة الطبيعة » لتستلقي في الشمس وهي ساخطة . ولكن ما  
لبث الجميع أن وافوها الى هناك ، واعتقدت كلير ، وهي تداعب باهمال شعر  
كاترين ، ان ما ينقص « هذه الطفلة » هي في الحقيقة رجل . ذلك أن المادة  
المألوفة في « البيت أمام العالم » هو أن يقرروا مصير كاترين ، وان ينسبوا اليها  
حاجات يعددون لها امتدادها وتنوعها . صحيح انها كانت تلاحظ من وقت  
الى آخر انها راشدة كفاية ، ولكنهم لا يستمعون اليها . وتقول روز :

- يا للسكينة ! انها بحاجة الى عشيق .

وبعد ذلك يستسلم الجميع لحرارة الشمس ، فتروي كاترين ، التي لم تكن  
حقودة ، حكاية من حكايات مكتبها وكيف ان الأنسة بيريز ، الشقراء الطويلة ،  
التي ستزوج عما قريب ، تطوف على الدوائر لتتوثق من الاوصاف الخفيفة التي يسر

المسافرين ان ينعموا بها ، وكيف صرخت ، وهي تبسم عندما عادت من العطلة التي اخذتها بمناسبة الزواج : « لم يكن ذلك فظيماً الى هذا الحد » . وتضيف كاترين في رثاء : « انها في الثلاثين » .

وقالت روز مستنكرة هذه القصص الخطيرة : « عجباً ، يا كاترين ، تنسين ان الموجودات هنا لسن فقط قنيتات صيبات » .

في هذه الساعة ، يمرّ البريد الجوي فوق المدينة ، وينتزه زهو معدنه اللامع على الارض وفي السماء ، ويدخل في حركة الجون ، فينحني مثلها ، ويندمج بسياق العالم ، متخلياً هنا عن لعبه ، وينمطف فجأة ، وينطس طويلاً في البحر ويحط في انفجار كبير من الماء الأبيض والأزرق . وتمدد غولا وكالي على جنبيها ، ومن خلال شذقيها الصغيرين الشبيهين بقم الأفعى كان يقرأى سقف حلقها الوردي ، وكانت احلام مترفة فاحشة تحترقها وتحث ارتعاشات في جنبيها . وسقطت السماء من الأعالي بكل حملها من الشمس والألوان . واحست كاترين ، وهي مغمضة العينين ، بالسقوط الطويل العميق الذي يعيدها الى اعماق ذاتها حيث يتحرك بلطف هذا الحيوان الذي ينتعش كأنه إله .

في الأحد التالي ، انتظروا ضيوفاً . وكان على كلير ان تطبخ . وقد قشرت روز الخضر ، وهيات الصحون والطاولة . ثم وضعت كلير الخضر في الأوعية وراقبت الطبخ وهي تقرأ في غرفتها . وبما ان ميناموريسك لم تأت ذلك الصباح لأنها فقدت والدها للمرة الثالثة في السنة ، فقد قامت روز أيضاً بالتنظيف . ووصل المدعوون ، وعلى رأسهم اليان ، التي يدعوها مرسو « المثالية » فتسأله : « ولماذا ؟ » فيجيبها : « لأنه حين يقال لك شيء حقيقي يفيظك تقولين : هذا صحيح ، ولكنه غير صالح » .

واليان ذات قلب طيب وتجد نفسها شبيهة بـ « رجل القفاز » وهو شبه ينكره عليها الجميع. ولكن غرفتها الخاصة مفروشة برسوم « رجل القفاز ». واليان تدرس . وفي أول مرة جاءت الى « البيت أمام العالم » صرحت بانها مسحورة بانعدام الاحكام المسبقة عند ساكنيه . ومع الزمن ، وجدت هذا أقل ملاءمة . فان لا يكون لديك أحكام مسبقة ، فذلك يتضمن ان تقول لها ان القصة التي روتها وأتقنتها بما أضفته عليها من عنايات انما هي قصة مضجرة تماماً ، وان تصرّح بحجة عند أقل جملة : « اليان ، لست سوى حمقاء » .

عندما دخلت اليان المطبخ مع « نوبل » ، المدعو الثاني الذي يمتن مهنة النحات ، وقعت على كاترين التي لم تكن تطبخ ابداً بوضع طبيعي . كانت مستلقية على ظهرها تأكل عنباً بيد وتحرك المايونيز الذي ما يزال في أوله بيدها الاخرى . اما روز ، التي كانت ترتدي مريولاً أزرق كبيراً ، فكانت تتأمل ذكاء غولا التي قفزت على الثريد لتأكل طعام الظهر .

قالت روز مقتبلة :

— لاحظي كم هي ذكية !

قالت كاترين :

— نعم ، انها تفوق اليوم على ذاتها .

وأضافت ان غولا التي تزداد ذكاء قد كسرت هذا الصباح الصباح الصغير الاخضر وإناء للورود .

وقرر اليان ونوبل ، اللذان كانا بلا شك مبهورين اكثر مما ينبغي ليمبرا عن قرفها ، قررا ان يتخذا لنفسها مقعداً لم يفكر احد ان يقدمه لها . ووصلت كلير ، لطيفة مسترخية ، فصافحت الأيدي وتذوقت حساء السمك على النار . وفكرت ان بالامكان الجلوس الى المائدة . ولكن باتريس هذا اليوم

كان متأخراً . إلا انه ما لبث أن وصل ، وبذلاقة لسان ، شرح لكثير انه سعيد لأن النساء كن جميلات في الشوارع .

كان الموسم الحار في مطلعته ، ولكن الاثواب الزاهية التي ترتجف تحتها اجسام قاسية قد ظهرت . وبسبب ذلك أحس باتريس بفعه جافاً ، وصدغيه خافقين وأحشائه حارّة ، وأمام هذه الدقة في التعابير ، لزمت اليان وطرها الصمت . وعلى المائدة ، تلا الذعر اولى ملاعق حساء السمك . قالت كلير ، المغفاج ، بأسلوب صاف جداً :

- أخشى ان يكون لهذا الحساء طعم بصل محروق .

قال نويل ، الذي كان الجميع يحبون قلبه الطيب :

- ولكن لا .

وإذ ذاك رجته روز ، لتمتحن هذا القلب الطيب ، ان يشترى للبيت عدداً من الاشياء النافعة كسختان للحمام وسجاد عجمي وبراد . وأجاب نويل مشجعاً روز على ان تصلي له ليربح هو نفسه في اليانصيب .

قالت روز بواقعية :

- ما دام علينا ان نصلي ، فاننا نصلي لأجلنا !

كان الجو حاراً حرارة كثيفة تجعل الحمر المثلج والفاكهة المجلوبة لتوها أطيب مذاقاً . وعند تناول القهوة ، تتحدث اليان عن الحب بشجاعة كبيرة . فلئن أحببت ، ستتزوج . قالت لها كاترين ان أكثر الامور إلحاحاً عندما يحب المرء هو ممارسة الحب . وكان ان شنجعت هذه السيامة المادية اليان . أما روز ، البراغمية ، فانها كانت توافقها « لو لم تكن التجربة » ، مع الاسف ، قد اثبتت ان الزواج يقتل الحب .

ولكن اليان وكاترين تقسران افكارها في الماكسة فتصبهان جائرتين كما

يحصل عندما يكون المرء صاحب مزاج . أما نويل ، الذي يفكر حسب  
الأصول والمألوف فيعتقد بالمرأة وبالأولاد وبالحيقة الأبوية في حياة حسية وازفة .  
وإذ أرهقت روز بصراخ اليان وكاترين ، تصنعت انها تفهم فجأة الغاية من  
زيارات نويل المعيدة . قالت :

- انني أشكرك ؛ ولن أستطيع ان أعبّر لك عن مبلغ تأثري بهذا  
الاكتشاف . وسأتحدث منذ الغد الى والدي عن « مشروعنا » وتستطيع  
أن تحده عن طلبك في غضون أيام .

قال نويل الذي لم يفهم جيداً :

- ولكن ...

قالت روز باندهاق كبير :

- أوه . انني أعلم . انني أفهمك من غير ان تكون بحاجة للكلام . إنك من  
أولئك الذين يصمتون وهم يحتاجون الى أن يفهموا . والحسب أنني سعيدة  
لكونك افضحت عن رأيك ، لأن تكرار زيارتك قد بدأ يمسّ طهارة  
سمعتي .

ويدا نويل مسروراً قلقاً بعض الشيء ، فأعلن عن ابتهاجه برؤية رغباته  
وقد توّجت .

قال باتريس هويشعل لفاقة :

- من غير ان تحسب ان عليك ان تسرع . فان وضع روز يلقي عليك  
تبعةً في استعجال الأمور .

قال نويل :

- ماذا ؟

قالت كلير :



– يا الهي ! اننا لسنا بعد إلا في الشهر الثاني .

وأضافت روز بجنان واقتناع :

– ثم انك بلغت السن التي يكون فيها المرء سعيداً بان يتعرف على ذاته في طفل رجل آخر .

وتجهم نوبل قليلاً، وقالت كبير، بلهجتها الطفولية الطيبة :

– انها مزحة ! ينبغي أن تأخذها بروح النكتة . لننتقل الى الصالون .

وفي اللحظة نفسها انتهى النقاش حول المباديء . ومع ذلك فان روز التي تقوم بتصرفاتها الجيدة في الحفاء تتحدث بهدوء الى البيان . وفي الغرفة الكبيرة ، وقف باتريس عند النافذة .

واستقامت كبير مستندة الى الطاولة واستلقت كابتين على الحصير . أما الآخرون فقد جلسوا على الديوان ، وكان ضباب كثيف يرف على المدينة والمرفاً . ولكن السفن الجرارة تستأنف عملها ، وتحمل نداءاتها الرصينة الى هنا ، مع روائح القطران والسمك ، عالم الهياكل الحمراء والسوداء والمرابط الصدئة والسلاسل اللزجة بالفطر ، ذلك العالم الذي يستيقظ تحت . وككل يوم ، كان هو النداء الرجولي الاخوي لحياة تحمل مذاق القوة ، فيحس الجميع هنا باغرائها او ندائها المباشر .

قالت البيان لروز بحزن :

– وانت ايضاً ، في الواقع ، مثلي .

قالت روز :

– لا . اني أحاول فقط ان أكون سعيدة والى أقصى حدّ ممكن .

قال باتريس من غير ان يتلفت :

- وليس الحب هو الوسيلة الوحيدة .

إنه يكنّ شغفاً كبيراً لإليان ، ويخشى ان يكون قد آلمها اللحظة . ولكنه يفهم روز في ارادتها أن تكون سعيدة .

قالت اليان :

- إنه مثل أعلى رديء .

- لا أدري ان كان مثلاً أعلى رديئاً ، ولكنه مثل أعلى سليم . وهذا،  
أترين ...

ولم يتابع باتريس ، وأغمضت روز عينيها قليلاً . وقفزت غولاً الى ركبتها .  
وبدأ عبات طويلة على عظام ججمتها ، مهدت روز لهذا الزواج الخفي الذي  
سترى فيه القطعة المغمضة العينين نصف اغماضة وسترى المرأة الجامدة بالنظرة  
نفسها عالماً متشابهاً كل منها يحلم بين نداءات السفن الطويلة . وتركت روز  
يتصاعد اليها مواء غولاً الملتفة في تجويف جسدها . وكانت الحرارة تضغط على  
عينيها وتفرقها في صمت مسكون بخفقات دمها . ان الهرة تنام اياماً بكاملها  
وتتحاب منذ بزوغ النجمة الاولى حتى الفجر . أن شهوتها تنهش ونومها ثقيل .  
وهي تعلم أيضاً ان للجسد روحاً ليس للروح فيه اى نصيب .

قالت روز وهي تفتح عينيها :

- اجل ، أودّ أن أكون سعيدة . والى أقصى حدّ ممكن .

كان مرسو يفكر بلوسيان رينال . عندما كان قد قال منذ فترة قليلة ان  
النساء كن جميلات في الشوارع ، كان يود ان يقول خاصة ان امرأة كانت قد  
بدت له جميلة . وكان قد التقى بها عند اصدقاءه . ولأسبوع خلا ، خرجا معاً ،  
واذ لم يكن عندهما ما يفعلانه ، فقد تنزها على البولفار ، بمحاذاة المرفأ ، في

صبيحة جميلة حارة . لقد امتنعت عن الكلام وحين صاحبها الى بيتها ، كانت مرسو مندهشاً وهو يشد على يدها طويلاً ويبتسم لها . كانت طويلة ، ولم تكن تلبس قبعة ، وكانت منتعلة صندلاً مكشوفاً ومرتدية ثوباً من الكتان الأبيض . كانا قد مشيا على البولفار في وجه ريح خفيفة . وكانت تضع قدمها مبسوطة على البلاط الحار ، وتستند اليها لترفع نفسها قليلاً . في وجه الريح وفي هذه الحركة ، كان ثوبها يلتصق بها ويرسم بطنها المسطح المكور . وكانت تمثل بشعرها الاشقر الملقى الى خلف ، وأنفها الصغير المستقيم ، وانطلاق نهدتها الرائع ، كانت تمثل وتؤكد نوعاً من الاتفاق السري كان يربطها بالأرض وينظم العالم حول حركاتها . وفيما كانت حقيبتها تتأرجح بيدها اليمنى المزينة بسوار من الفضة كان يطقطق على القفل ، وعندما كانت ترفع يدها اليسرى فوق رأسها لتتقي الشمس ، وطرف رجلها اليمنى على الأرض ما تزال ، ولكنها على وشك ان تغادرها ، عندها كان يخيل لمرسو انها كانت تشد حركاتها الى العالم .

وآنذاك أحسّ بالتوافق السري الذي كان يؤلف خطواته وخطوات لوسيان . كانا يمشيان معاً بتناسق من غير ان يبذل اي جهد لينسجم معاً . صحيح ان هذا التوافق كان ميسراً بجذاء لوسيان المسطح . ولكن كان في دعساتها شيء مشترك بينهما في الطول والمرونة . وفي آن واحد ، لاحظ مرسو صمت لوسيان وهيئة وجهها المنقبضة . وفكر بانها كانت على الأرجح ناقصة الذكاء ، وسرّ لذلك . هناك شيء إلهي في الجمال الخالي من الفكر ، وكان مرسو . يعرف أفضل من أي كائن آخر ، كيف يتأثر بذلك . كل ذلك جعله يطيل تلمسه لأصابع لوسيان ، ويتأبها كثيراً ، ويتنزه طويلاً معها بمسيرة صامتة مانحين وجهيهما المسمرين للشمس او للنجوم ، ساجدين معاً ، مؤلفين حركاتها واقدامها من غير ان يتبادلا إلا حضور جسديهما . وقد تم ذلك كله حتى مساء

أمس إذ وجد مرسو معجزة مألوفة ومثيرة على شفتي لوسيان . إن ما كانت  
يشيره حق الآن كان طريقته في التعلق بشيابه ، واتباعه متأبطة ذراعه ، وذلك  
الاستسلام وتلك الثقة اللذان كانا يمسان الرجل فيه . وكذلك صمتها الذي كان  
يضمها برمتها في حركتها الآنية ويكمل تشابهها مع الققط التي كانت تدين لها  
بالرزانة التي كانت تسبغها على جميع اعمالها .

وأمس ، بعد العشاء ، كان قد تنزه على المرفأ معها . وذات لحظة ، كانا قد  
توقفا على حاجز البولفار فالتصقت لوسيان بمرسو . وفي الليل احس تحت  
اصابعه بالوجنتين المثلجتين البارزتين ، والشفتين الدافئتين دفناً كان الاصبع  
يفوص فيه . وإذ ذلك احس في نفسه ما يشبه صراخاً كبيراً متجرداً ملتهباً .  
وأمام الليل المثقل بالنجوم ، والمدينة ، كسواء مقبولة مليئة بالأضواء البشرية  
تحت النفس الساخن العميق الذي كان يصعد من المرفأ نحو وجهه ، كان يروده  
العطش لهذا النبع الدافئ ، وتعصف به ارادة لا تكبح لكي يلتقط على  
هاتين الشفتين النابضتين كل معنى هذا العالم اللانساني الغافي ، كأنه صمت مسجون  
في فمها . وانحني فكان ذلك كما لو أنه كان يضع شفتيه على عصفور . وأنت  
لوسيان . وكان بعض شفتيها طوال دقائق ، وقمه لصق فمها ، كان يشرق  
هذا الدفء الذي كان يحمله كما لو انه كان يضم العالم بين ذراعيه . وكانت هي ،  
اثناء ذلك ، تتشبث به ، كأنها غريقة ، وتنبثق بدفعات من هذا الثقب الكبير  
العميق الذي كانت ملقاة فيه ، وتبعد شفتيها اللتين كانت تجذبهما بعد ذلك ،  
لتسقط في المياه المجددة السوداء التي كانت تحرقها كشعب من الآلهة .

... ولكن البيان كانت قد بدأت بالذهاب . وكان عصر طويل من الصمت  
والتفكير ينتظر مرسو في غرفته . وعند العشاء كانوا جميعهم صامتين .  
ولكنهم بتوافق موحد انتقلوا جميعاً الى السطیحة . ان النهارات تنتهي دائماً

بان تلتحق بالنهارات . من الصباح على الجون ، المتلائيء بالغيوم والشمس ، حتى  
عدوية المساء ، على الجون يبزغ النهار على البحر ويفيب خلف الروابي لأن  
السماء لا تكشف إلا طريقاً واحداً ينطلق من البحر حتى الروابي . ان العالم  
لا يقول ابداً إلا شيئاً واحداً . فيغري ثم يسثم . ولكن يأتي دائماً وقت  
ينتصر فيه بقوة الترداد فيقبض ثمن مئبرته . وهكذا فان أيام « البيت امام  
العالم » المنسوجة من القماش المترف للضحكات والحركات البسيطة تنتهي على  
السطيحة أمام السماء المليئة بالنجوم . كانوا يتمددون على مقاعد طويلة ، وكانت  
كاترين جالسة على حائط السور .

وفي السماء ، يلتمع وجه الليل المعتم ملتبهاً وسرياً ، وتقرأ أضواء بعيدة  
جداً في المرفأ ويتباعد زئير القطارات . وتكبر النجوم ثم تتقلص وتختفي  
ثم تولد من جديد ، موحدة وجوها متقلبة فيما بينها . وفي الصمت ، يسترد الليل  
كثافته ولحمه ، ومثقلاً بانزلاقات نجومه ، كان يترك في الميون الاعيب الأضواء  
التي تضع فيها الدموع . وكان كل واحد ، وهو يغوص في اعماق السماء ، يلقي  
في هذه النقطة القصوى التي يلتقي فيها كل شيء ، الفكرة الحفية الحنونة التي  
تشكل كل وحدة حياته .

ولم تستطع كاترين ، التي خنقها الحب فجأة ، إلا ان تنهد . ومع ذلك فقد  
سأل مرسو الذي أحس بصوتها متغيراً :

— ألا تشعرين بالبرد ؟

قالت روز :

— لا . ثم ان ذلك جميل جداً .

ونفضت كلير ، فوضعت يديها على الحائط ومدت وجهها نحو السماء .  
وأمام كل ما في العالم من بدائي ورفيع ، مزجت بين حياتها وبين شهوتها الى  
الحياة ، وخطت أملها مع حركة النجوم . وحين تبهت فجأة توجهت قائلة  
لباتريس :

— في الأيام الطيبة ، حين تمنح الحياة الثقة ، فهذا يجبرها على ان تردّ بالمثل .  
قال باتريس من غير أن ينظر اليها :  
— نعم .

وانخضت نجمة ، وخلفها ، انتشر ضوء منارة بعيدة في الليل الذي ازداد  
الآن حلكة . وتسلق رجال الطريق صامتين . وكانوا يُسمعون وهم يراوحن  
ويتنفسون بشدة . وبمد قليل فاح عبير ورود .

إن العالم لا يقول ابداً إلا شيئاً واحداً . وفي هذه الحقيقة الصابرة التي  
تنتقل من نجمة الى نجمة ، تترسخ حرية 'تحلّنا من ذاتنا ومن الآخرين ، شبيهة  
بتلك الحقيقة الصابرة الأخرى التي تنتقل من الموت الى الموت . آنذاك كان  
باتريس وكاترين وروز وكلير يعون السعادة التي تولد من استسلامهم للعالم .

ولئن كان هذا الليل كوجه مصيرهم ، فانهم ممجبون بأن يكون حسياً وسرياً في وقت  
واحد ، وان تختلط على وجهه الدموع والشمس . ويعرف قلبهم المليء بالألم  
والفرح أن يستمع الى هذا الدرس المزدوج الذي يقود نحو الموت السعيد .

الوقت متأخر الآن ، فقد بدأ منتصف الليل . وعلى جبين هذا الليل الذي  
يشبه راحة العالم وفكره ، كان تضخم أصمّ وجابة نجوم ينبئان باليقظة القادمة .  
ومن السماء ، المفعمة بالكواكب ، ينحدر نور راجف . وينظر باتريس الى صديقاته :  
كاترين مقرفة على الحائط ، رأسها مقلوب الى الوراء ، وروز ، قابضة في  
الكرسي الطويل ، يداها مبسوطتان على غولا ؛ وكلير واقفة متصلة إزاء  
الحائط تعملو لطحّة بيضاء جبينها المقرب . كائنات شابة ، قابلة للسعادة يتبادلون  
شبابهم ويحتفظون بأسرارهم . واقترب من كاترين ، ونظر من فوق كتفها  
المصنوعة من اللحم والشمس في كرويتها الساوية . واقتربت روز من الحائط  
فأصبحوا هم الأريمة أمام «العالم» . كان ذلك كالوان الندى الليلي الذي غدا

فجأة أكثر نضارة كان يفسل عن جباههم أمارات وحدتهم ويحرّرم من ذواتهم،  
وبهذا التعميد الراجف الخاطف كان يعيدهم الى العالم ، وفي تلك الساعة التي  
يفيض فيها الليل بالنجوم ، تتسمّر حركاتهم على وجه السماء الكبير الاصم .

ورفع باتريس ذراعه نحو الليل وجرف في انطلاقتة باقات من النجوم، وماء  
السماء الذي خففته ذراعه ومدينة الجزائر تحت قدميه ، وحولهم ما يشبه معطفاً  
قائماً متلألئاً بالجواهر والاصداف .

## الفصل الرابع



في الصباح الباكر ، كانت سيارة مرسو تجري على طريق الساحل بمصاحيها المنخفضي الضوء . وحين خرج من مدينة الجزائر ، كان قد أدرك وتجاوز عربات بائمي اللبن ، وكانت رائحة الخيول المزوجة من العرق الحار والزرية ، قد جعلته اكثر تذوقاً لنضارة الصباح . كان الوقت ما يزال ليلاً ، وكانت نجمة اخيرة تدوب ببطء في السماء ، وعلى الطريق الملتع في الظلمة ، كان يلحظ فقط صوت وحش المحرك السعيد ، و احياناً على بعد طفيف ، خيب حصان وضجيج عربية مليئة بالصمائع ، الى ان استطاع ان يدرك ، على الخلفية السوداء للطريق ، يرسق الحديد اللعاب المربّع على اقدام الحصان . ثم كان كل شيء يضمحل في ضجيج السرعة . كان الآن يسبح بسرعة اكبر ، وكان الليل يميل بسرعة نحو النهار .

وفي اعماق الليل المتراكم بين روايي مدينة الجزائر ، كانت السيارة تخرج على طريق مالكة تشرف على البحر حيث كان الصباح يكتمل . واطلق مرسو لسيارته العنان . كانت العجلات تضاعف على الطريق الرطب بالندى اصواتها الصغيرة الشبيهة بأصوات محجم . وعند كل منعطف ، كانت ضربية مكبح تجعل العجلات تزأر على نحو حاد ، وفي الخط المستقيم كان خرير الاقلاع الجديد يطغى لحظة على اصوات البحر الصغيرة التي كانت تصعد من الشواطئ ، على مستوى ادنى . إن الطائرة وحدها تتيح وحدة يتحسسها الانسان اكثر مما يتحسس الوحدة التي يكتشفها في السيارة . وقد كان مرسو ، وهو حاضر أمام نفسه حضوراً تاماً ، راضٍ رضى واعياً عن دقة حركاته ، يستطيع في الوقت

نفسه ان يعود الى ذاته وإلى ما كان يشغله . كان النهار الآن مشرعاً عند طرف الطريق . وكانت الشمس ترتفع على البحر ومعها كانت الحقول ذات الحواشي ، المقفرة ، للحظة خلت ، تستيقظ مليئة بالمصافير والحشرات ذات الطيران الأحمر . احياناً كان فلاح يجتاز احدها فلا يحفظ مرسو ، وهو مدفوع بالسرعة ، إلا صورة طيف يحمل كيساً ، ويطأ بكل ثقل خطواته على الأرض الدهنية التارّة . وكانت السيارة تعيده بانتظام الى المنحدرات التي تسيطر على البحر . وكانت هذه المنحدرات تتضخم ، وكان طيفها ، الذي لم يكن منذ لحظات يتميز إلا كظل صيني تجاه النهار ، يقترب بسرعة ويتضخم بدقائقه ويقدم لمرسو جنباته المكشوفة فجأة ، مليئة بشجرات الزيتون والصنوبر والبيوت الصغيرة المطينة . ثم كان ينتفخ بالمدد ويصعد نحو مرسو ، كقربان مليء بالملح والحمة والنعاس ، وكانت السيارة آنذاك تمر على الطريق وتتجه من جديد نحو منحدرات اخرى ونحو البحر ذاته . لشهر خلا ، كان مرسو قد أعلن رحيله عن « البيت أمام العالم » . كان يريد ان يسافر اولاً ثم يستقر في ضواحي مدينة الجزائر . وبعد بضعة أسابيع عاد ، متأكداً من ان السفر كان يمثل له بعد الآن حياة غريبة : كان الاغتراب يبدو له فقط سعادة انسان قلق ، كما انه كان يحس في ذاته تعباً غامضاً . كان متعجلاً ليحقق المشروع الذي سبق ان وضعه لشراء بيت صغير بين البحر والجبل ، في الشنوة ، على بعد كيلومترات من خرائب تيبازا . ولدى وصوله الى مدينة الجزائر ، كان قد صمم الديكور الخارجي لحياته ، فاشترى كمية هامة من المستحضرات الصيدلانية الالمانية وعيّن موظفاً كان يدفع له للاشراف على العمل ، مبرراً بهذه الطريقة غيابه عن مدينة الجزائر والحياة المستقلة التي كان يحياها . وكان العمل يسير في ما تبقى بطريقة ما ، وكان يتكفل بالعجز الاتفاقي ، مضيفاً بلا تأنيب ضمير ، هذه الضريبة الى حرته العميقة . كان حسبه بالفعل ان يقدم للعالم وجهاً يستطيع ان يفهمه ، ويضطلع الكسل والجن بالباقي . إن الاستقلال يُكتسب

ببعض كلمات رخيصة من كلام الاعتراف. ثم اهتم مرسو فيما بعد بمصير لوسيان .  
لم يكن لها اهل ، وكانت تعيش وحدها . وكانت سكرتيرة في متجر  
للفحم ، وكانت تفتت بالفاكة وتقوم بالرياضة البدنية . وقد اعارها مرسو  
كتباً فأعادتها اليه من غير ان تقول شيئاً . وكانت تجيب على اسئلته . بقولها :  
« نعم نعم . انها جيدة » . او : « هذا حزين بعض الشيء » . وفي اليوم الذي  
قرر فيه أن يغادر مدينة الجزائر ، عرض عليها ان تعيش معه ، على ان تقيم في  
مدينة الجزائر من غير ان تعمل ، وان توافيه عندما يكون بحاجة اليها . قال  
ذلك باقتناع كاف لكي لا ترى لوسيان في الأمر اي شيء مذل ، والحق انه  
لم يكن فيه اي شيء مذل . وغالباً ما كانت لوسيان تلاحظ يجسدها ما كان  
فكرها يمجز عن فهمه ، فقبلت . وأضاف مرسو :

— اذا كنت حريصة على ان تتزوجي ، فباستطاعتي ان أعدك بالزواج  
منك . ولكن ذلك لا يبدو لي مفيداً .

قالت لوسيان :

— كما تشاء .

بعد اسبوع ، كان يتزوجها ويتهيأ للذهاب . وفي أثناء ذلك اشترت لوسيان  
لنفسها قارباً برتقالي اللون لتذهب الى البحر الأزرق .

وتجنب مرسو، بضربة مقود، دجاجة صباحية. كان يتذكر حديثاً كان قد  
أجراه مع كاترين. وكان قد غادر «البيت أمام العالم» عشية يوم السفر ليمضي  
ليلة وحيداً في الفندق .

كان ذلك في أول العصر ، ولما كانت الدنيا قد امطرت في الصباح ،  
فان الجون كان بأكملة كزجاج مغسول، والساه كغسيل رطب . وبالمواجهة  
تماماً ، كان الرأس الذي كان ينهي دائرة الجون يرسم بنقاء عجيب ، وكان

يتمدد مذهباً شعاع الشمس ، أشبه بحية صيف كبيرة . وكان باتريس قد انتهى من استعداده للسفر ، وكان الآن ، وذراعاه على قائمة واجهة النافذة ، ينظر بنهم إلى هذه الولادة الجديدة للعالم .

— لا أفهم لماذا تذهب ، ان كنت سعيداً هنا .

هذا ما كانت كاترين قد قالت له .

— انني أخشى أن أحب هنا ، يا صغيري كاترين ، وهذا سيمنعني من ان

أكون سعيداً .

كانت كاترين ملتفتة على نفسها على الأريكة ، منخفضة الرأس بعض الشيء ، وكانت تنظر باتريس بنظرها الجميل الخالي من العمق . وقد قال من غير أن يلتفت :

— كثير من الرجال يعقّبون وجودهم ويخترعون لأنفسهم مصائر . أما أنا ، فالأمر عندي بسيط ، انظري .

كان يتكلم بمواجهة العالم ، وكانت كاترين تحس نفسها منسية . كانت تنظر الى أصابع باتريس الطويلة والمتدلّية عند طرف ساعده المطوي على قائمة النافذة ، وإلى طريقتة في إسناد جسده على جانب واحد ، وإلى نظره التائه الذي كانت تحزره من دون أن تلحظه .

قالت :

— ما أودة ...

ولكنها سكنت ، ونظرت إلى باتريس ، كانت أشمعة صغيرة قد بدأت في عبور البحر منتهزة فرصة الهدوء . كانت تبلغ المضيّق قتملاًه بحفقات الأجنحة ثم ، فجأة تحول جريها نحو عرض البحر ، يرافقها نحر من الهواء والماء كان يتفتح بارتعاشات طويلة مزبدة . ومن مكانها ، ويقدر ما كانت تقترب الاشمعة من البحر ، كانت كاترين تراها ترتفع حول باتريس كرفيف طيور بيضاء . وبدا

أنه يحس صمتها ونظرها ، فالتفت ، وأمسك بيديها وضمها إليه .  
- لا تراجعني ، أبداً ، يا كاترين . انك تملكين الكثير من الأشياء في نفسك ،  
وانبها جميعاً حسن السعادة : لا تنتظري الحياة فقط من رجل بسبب ذلك .  
تخطيء الكثيرات من النساء . ولكن انتظريها من ذاتك .

قالت كاترين يهدوء وهي تأخذ كتف باتريس :

- إنني لا اشتكي ، يا مرسو . هناك شيء واحد مهم الآن . اعتن بنفسك .  
وأحس إذ ذاك كم كان يقينها يستند على قليل من الأشياء ، وكان قلبه جافاً  
بطريقة غريبة .

- كان عليك ان لا تقولي ذلك الآن .

وتناول حقيبته وهبط في بادية الأمر السلم الواقف ثم سلك الطريق  
المبتدئ من شجرات الزيتون حتى شجرات الزيتون . ولم يكن شيء ينتظره بعد  
سوى الشنوة ، غابة في الخرائب والأبست ، وحب بلا أمل ولا يأس ترافقه  
ذكرى حياة من الخل والورود . والتفت فوق ، كانت كاترين تنظر إليه يرحل ،  
بلا حراك .

وبعد أقل من ساعتين بقليل وصل مرسو مقابل شنوة . في هذه اللحظة  
كانت أضواء الليل البنفسجية الأخيرة ما تزال تنسحب على منحدراتها التي كانت  
تغطس في البحر بينما كانت اللقمة تشع بالأضواء الحمراء والصفراء . كان هناك ما  
يشبه اندفاعاً قوياً وكثيفاً للأرض ينطلق من منحدرات السهل التي كانت ترتسم  
جانباً عند الأفق ، لتنتهي عند هذا الظهر الضخم للحيوان العاضل الذي يغطس  
في البحر بقامته كلها .

وكان البيت الذي اشتراه مرسو يرتفع عند آخر المنحدرات على ارتفاع ما  
يقرب من مئة متر عن البحر الذي كانت قد ذهبته الحرارة . لم يكن يتكون إلا  
من طابق واحد فوق الطابق الأرضي ، وفي هذا الطابق لم يكن ثمة سوى غرفة

واحدة مع قوابها . ولكن هذه الغرفة كانت واسعة ، كانت تنفتح على الحديقة الأمامية ، ثم على البحر يجون رائع مطول بسطيحة وقد صعد مرسو اليه بسرعة . كان البحر قد بدأ يرسل بخاره ، وفي آن واحد أخذت زرقته تزداد دكنة ، بينما كانت حمرة بلاطات السطيحة الحارة تكتسب إشراقته ولمعانه . وكان الدرايزون المملطيتيح لأولى أزهار شجرة ورد رائحة معرشة أن تتسلل خلاله . كانت الورود بيضاء ، أما التي كانت مفتحة ، متفرقة على البحر ، فقد كان في صلابتها ما هو مشبيح وخصب . ومن غرف الطابق الأسفل ، كانت احداها تطل على أول منحدرات الشنوة ، الملوئة بالأشجار المثمرة ، بينما تطل الغرفتان الأخريان على الحديقة ، وعلى البحر . وفي الحديقة ، كانت شجرتا صنوبر تقذفان في السماء جذعيهما اللامتناسقين اللذين تغطي طرفيهما فقط فروة مصفرة وخضراء . ومن البيت لم يكن المرء يستطيع ان يرى إلا الفضاء المسجون بين هاتين الشجرتين وانحناءة البحر بين الجذعين . في هذه اللحظة على الأقل ، كان بخار خفيف يمر في عرض البحر ، وقد نظر مرسو اليه أثناء الرحلة الطويلة التي قطعها من صنوبرة إلى أخرى .

هنا كان سيعيش . وكان جمال هذه الأماكن يؤثر بلا شك على قلبه . لأجلها أيضاً كان قد اشترى هذا البيت . ولكن الراحة التي كان قد أمل أن يجدها هنا كانت تخيفه الآن . وهذه الوحدة التي كان قد بحث عنها بهذا القدر من الوضوح كانت تبدو له أشد إقلاقاً ، لا سيما وأنه الآن كان يعرف إطارها . لم تكن القرية بعيدة بل كانت على بعد بضع مئات من الامتار . وخرج . كان درب صغير يهبط من الطريق نحو البحر . وإذ دلف اليه ، لاحظ لأول مرة انه كان بالامكان رؤية رأس تبازا الصغير ، من الناحية الأخرى للبحر . على طرف هذا الرأس ، كانت أعمدة المعبد المذهبة تتقاطع ، ومن حولها الخرائب المندثرة بين اشجار الأبنست التي كانت تشكل ، على مسافة ما ، فروة رمادية وصوفية . وفكر مرسو بأن الريح ، في أمسيات حزيران ، لا بد من ان تحمل إلى شنوة ،

عبر البحر ، العطر الذي كانت تفيض به أشجار الأبننت المفعمة بالشمس .

كان عليه ان يجهز مسكنه وينسقه . وقد مضت الأيام الأولى بسرعة : طلى الجدران بالكلس ، واشترى بسطاً من مدينة الجزائر ، وأعاد التمديد الكهربائي . وفي هذا العمل المتقطع في النهار بالوجبات التي كان يتناولها في مطعم الضيعة وبجھامات البحر ، كان ينسى لماذا أتى إلى هنا ، وكان يتوزع في تعب جسده ، بجوف الكلتيين ، متصلب الساقين ، مهموماً من نقص الدهان أو من التركيب الفاسد لفصلة في المر . وكان ينام في الفندق ويتعرف شيئاً فشيئاً على الضيعة : الصبيان الذين كانوا يأتون بعد ظهر الأحد ليلعبوا بالبليار الروسي والبنغ - بونغ . ( كانوا يمتنون الألعاب بعد الظهر كله ، ولم يكونوا يتناولون إلا طلباً واحداً ، مما كان يثير غيظ صاحب الدكان ) ؛ والبسات اللواتي كن يتزهن مساء على الطريق التي كانت تشرف على البحر ( كن يتماسكن بالاذرع وكانت اصواتهن تغني قليلاً على المقاطع الاخيرة للكلمات ) ؛ و «بيريز» الصياد الذي كان يزود الفندق بالسماك ولم تكن له إلا ذراع واحدة ، وهناك أيضاً التقى بطبيب القرية ، برنار . ولكن في اليوم الذي تم فيه ترتيب كل شيء ، نقل مرسو إلى المنزل حوائجه ، ورجع بعض الشيء إلى نفسه . وكان ذلك في المساء . كان في غرفة الطابق الأول ، وخلف النافذة كان عالمان يتنازعان الفضاء بين الصنوبرتين ، وكانت النجوم في احدهما ، المائل الى الشفافية ، تتكاثر . وفي الآخر ، الأكثر كثافة وسواداً ، كان خفقان ماء خفيفة يشتر بالبحر .

حتى ذلك الحين كان قد عاش في حالة الاستيداع ، ملتقياً بالعمال الذين كانوا يساعدونه أو مثيراً مع صاحب المقهى ، ولكن في ذلك المساء وعى انه لم يكن ثم أحد يلقاه ، لا غداً ولا أبداً ، وانه كان وجهاً لوجه مع الوحدة التي طالما تنهاها . ومنذ اللحظة التي كان عليه ان يلقي فيها احداً ، بدا له اليوم التالي قريباً بشكل مريع . بيد أنه أقنع نفسه بأن هذا هو ما سبق له ان اراده : هو امام نفسه ولوقت طويل وحتى النهاية . وصمم على ان يظل يدخن ويفكر حتى ساعة

متأخرة في الليل . ولكنه حوالي الساعة العاشرة أخذه النعاس فنام . في اليوم التالي استيقظ متأخراً جداً ، عند العاشرة تقريباً ، فهياً فطوره وتناولوه قبل ان يأخذ زينته . كان يحس نفسه تعباً بعض الشيء . ولم يكن قد حلق ذقنه وكان شعره مبعثراً . ومع ذلك ، فانه ، بعد أن أكل ، وبدلاً من ان يدلف إلى الحمام ، تاه من غرفة إلى أخرى ، مقلباً أوراق مجلة ، وأحس أخيراً انه سعيد إذ وجد عاكساً للتيار الكهربائي متديلاً من الحائط فباشر العمل . وُطرق الباب . وكان هو صبي الفندق الصغير الذي كان يحضر له غداءه كما سبق ان اتفق معه البارحة . وكما كان ، وبكسل ، جلس الى الطاولة ، وأكل من غير شهية قبل ان تبرد الصحون ، وأخذ يدخن ، متمدداً على أريكة غرفة الطابق الاسفل . عندما استيقظ ، غاضباً لكونه قد نام ، كانت الساعة الرابعة . وإذ ذلك هندم نفسه ، وحلق بعناية ، ثم ارتدى ثيابه وكتب رسالتين ، احدهما للوسيان والاخرى للتلميذات الثلاث . كان الوقت إذ ذاك متأخراً جداً ، وكان الليل يهبط ، ومع ذلك ، فقد ذهب حتى القرية ليلقي رسائله في البريد ، وعاد من غير أن يكون قد التقى أحداً . وصعد إلى غرفته ، ثم خرج الى السطحة . كان الليل والبحر يتحاوران على الساحل الرملي وفي الخرائب .

وكان هو يفكر . وكانت ذكرى هذا اليوم الضائع تسممه . وذلك المساء ، على الأقل ، كان يريد ان يشتغل ، ان يعمل شيئاً ما ، ان يقرأ أو يخرج ليمشي في الليل . وصرّ حاجز الحديقة المشبك : هذا عشاؤه يصل . كان جائعاً فأكل بشهية ، وأحس نفسه عاجزاً عن الخروج . وقرر أن يقرأ طويلاً في السرير . ولكن عينيه أغلقتا عند الصفحات الأولى ، وفي اليوم التالي استيقظ متأخراً .

في الأيام التالية ، حاول مرسو ان يقاوم هذا الاجتياح . وبقدر ما كانت الأيام تمر ، مليئة كلها بصريير الحاجز المشبك واللغائف التي لاتعد ، كان القلق يأخذ به وهو يقدر التفاوت بين الحركة التي كانت قد قادته إلى هذه الحياة



وهذه الحياة نفسها . وذات مساء ، كتب للوسيان يدعوها قاطعاً بهذه الطريقة الوحيدة التي طالما كان ينتظرها . عندما ذهبت الرسالة ، كان خبيل قد افترسه ، ولكن عندما وصلت لوسيان ، ذاب هذا الخبيل في نوع من الفرح الأبله المتعجل اجتاحه وهو يرى كأنها مألوفاً ، ويرى الحياة المريحة التي كان حضوره ينطوي عليها . وأخذ يهتم بها ، ويبيدي حفاوة كبيرة ، وكانت لوسيان تنظر اليه بشيء من الدهشة ، ولكنها كانت دائماً منهمكة بفساتينها من الكتان الأبيض المكويّة جيداً .

وبعدما خرج الى القرية ، ولكن مع لوسيان . واستردّ تواطؤه مع العالم ، ولكن وهو يضع يده على كتف لوسيان . وحين لاذ بالانسان فيه ، كان يهرب من خوفه الخفي . ومع ذلك ، فبعد يومين كانت لوسيان تضجّره . وقد اختارت هي هذه اللحظة بالذات لتطلب اليه ان تعيش بالقرب منه . كانا يتناولان العشاء ، وكان مرسو قد رفض بوضوح من غير ان يرفع عينيه عن صحنه .

وبعد لحظة صمت ، كانت لوسيان قد أضافت بصوت محايد :

– انت لا تحبني .

فرفع مرسو رأسه . كانت عيناها مليئتين بالدموع . ورق لها :

– ولكنني لم أقل ذلك أبداً ، يا صغيرتي .

قالت لوسيان :

– هذا صحيح ، وهذا هو السبب .

ونفض مرسو ، فسنار نحو النافذة . بين شجرتي الصنوبر ، كانت النجوم تتسكاث في الليل . ربما لم يسبق لباتريس قط أن أحسّ في قلبه ، وفي آن واحد ، بقلقه وبمثل هذا التقزز من الأيام التي انقضت . وقال :

– انت جميلة يا لوسيان . إنني لا أرى أبعد من ذلك . ولا اطلب منك  
اكثـر من هذا . ان ذلك يكفينـا نحن الاثنين .

قالت لوسيان : – أعرف ذلك .

وكانت توليه ظهرها ، وكانت تحكّ الخوان ، بجد سكينها . وقد أقبل  
عليها وأمسكها من رقبتها :

– صدقيني ، ليس هناك ألم كبير ولا ندامات كبيرة ولا ذكريات كبيرة .  
كلّ شيء ينسى ، حتى الحب الكبير . هنا يكمن كل ما في الحياة من حزين  
ومثير في وقت معاً . هناك فقط طريقة ما في النظر الى الأشياء ، وهي تنبعث  
من وقت الى آخر . من أجل ذلك يستحسن ، بالرغم من كل شيء ، ان يكون  
المرء قد عرف حباً كبيراً ، او عاطفة شقية في حياته . هذا يخلق على الأقل  
ذريعة للباس الذي لا مبرر له والذي نحن تحته رازحون .

ويعد فترة ، فكر مرسو وأضاف :

– لا أدري ان كنت تفهميني .

قالت لوسيان :

– اعتقد انني افهم .

وأدارت فجأة رأسها نحوه :

– انت لست سعيداً .

قال مرسو بعنف :

– سأكون سعيداً . يجب ان أكونه . بفضل الليل وهذا البحر وهذه  
الرقبة تحت أصابعي .

وكان قد اتجه نحو النافذة ، وشدّ يده على رقبة لوسيان . وكانت تلتزم

الصمت . ثم قالت من غير ان تنظر اليه :

– إنك على الأقل ، تكن لي بعض الصداقة ؟

ركع مرسو أمامها وهو بعض كتفها :

– صداقة ، نعم ، كما أكنّ صداقة لليل . انك فرحة عيني ، وانت لا تعلمين اي مكان يمكن ان تحتله هذه الفرحة في قلبي .

وذهبت في اليوم التالي . وفي اليوم الذي تلاه ، كان مرسو ، وقد عجز عن ان يأتلف مع نفسه ، يصل الى مدينة الجزائر بالسيارة . وقد ذهب اولاً الى « البيت أمام العالم » . ووعده صديقاته بان يذهبن لرؤيته في اواخر الشهر نفسه . واراد اذ ذلك ان يعود الى حيه .

كان بيته قد أجز لصاحب مقهى . واستخبر عن البراميلي فلم يستطع أحد افادته . كانوا يعتقدون انه ربما كان قد ذهب الى باريس بحثاً عن عمل . وتنزّه مرسو . وفي المطعم ، كان سيليست قد شاخ – قليلاً . وكان رينه ما يزال هناك ، مع سلتة وهيئة الرزينة . وقد سعدوا جميعاً بان يروا مرسو من جديد ، وكان هو متأثراً بهذا اللقاء .

قال له سيليست :

– أوه ، يا مرسو ، انت لم تتغير !

قال مرسو : نعم .

كان يعجبه هذا الاصرار العجيب على ان يفرض الناس على اصداقائهم ، بالرغم من كونهم مطلعين اطلاقاً كبيراً على ما يتغير في ذواتهم ، الصورة التي كوّنها عنهم مرة وإلى الابد .

وبالنسبة له ، فقد كانوا يحكمون عليه وفقاً لما سبق ان كانه . وككلب

لا يغير من طباعه ، كذلك فان الناس هم كلاب في نظر الانسان . وبالقدر نفسه الذي كان فيه سيليست ورينه والآخرين قد عرفوه ، فقد كان يصبح بالنسبة لهم غريباً ومنفلقاً ككوكب غير مأهول . ومع ذلك ، فقد تركهم بصدقة . وبينما هو خارج من المطعم ، التقى بمارت . وإذ رآها ، وعى انه كان قد نسيها تقريباً وانه كان في الوقت نفسه يأمل ان يلقاها . لقد كان لها دائماً وجه الإلهة المرسومة . وقد اشتهاها خفية ولكن من غير اقتناع . وسارا معاً .

قالت له :

— أوه ، يا باتريس ، كم انا مسرورة . ماذا أصبحت ؟

— لا شيء . كما ترين . انني اسكن القرية .

— هذا رائع ! لقد حلمت انا دائماً بذلك

وبعد صمت ، قالت :

— أتعلم ؟ إنني غير حاقدة عليك .

قال مرسو وهو يضحك :

— نعم . لقد تعزيت .

وإذ ذاك اتخذت مارت لهجة لم يكن يعهدا فيها قط :

— لا تكن خبيثاً ، أتريد ذلك ؟ كنت اعرف جيداً ان هذا سينتهي هكذا يوماً ما . لقد كنت شخصاً عجيباً ، وانا لم اكن سوى فتاة صغيرة كما كنت تقول . وعندما حصل الأمر غضبت طبعاً . انت تفهم . ولكنني انتهيت الى ان أقول لنفسى انك كنت تميساً . وهذا غريب . انني لا أعرف جيداً ان اعبر عن هذا ، ولكن هذه هي المرة الاولى التي أدرك فيها ان مها كان حدث بيننا قد جعلني حزينة وسعيدة في آن واحد .

نظر اليها مرسو ، مندهشاً . كان يفكر فجأة بأن مارت كانت دائماً على علاقة طيبة جداً معه . كانت قد تقبلته على علاقته ، وكانت قد انتزعت من كثير من الوحدة . ولقد كان غير منصف . ففي الوقت نفسه الذي كان فيه خياله ، وزهوه قد منحها من القيمة اكثر مما ينبغي ، فان غروره لم يمنحها من هذه القيمة ما فيه الكفاية . كان يحس بأية مفارقة قاسية تُنخدع دائماً مرتين بالأشخاص الذين يحبهم ، لصالحهم أولاً ولغير صالحهم فيما بعد . وهو يدرك اليوم ان مارت قد كانت طبيعية معه - وانها قد كانت ما كانته ، وبهذه الصفة كان مديناً لها بالكثير . كانت الدنيا تظن رذاذاً ما يكفي بالضبط لمضاعفة أضواء الشارع وتبديدها . وعبر نقط الأنوار والمطر ، كان يرى وجه مارت الجاد فجأة فيحس نفسه مأخوذاً بعرفان مضطرب لم يكن يتوصل للتعبير عن نفسه ، عرفان كان بإمكانه ، في أوقات اخرى ، ان يعتبره نوعاً من الحب . ولكنه لم يعرف ان يجد إلا كلمات مسكينة ، فقد قال لها :

- انت تعلمين ، انني احبك كثيراً ! والآن ايضاً ، لو كنت استطيع شيئاً ..

ابتسمت له ، وقالت :

- لا . انني شابة : وإذن فانني لا أحرم نفسي .

وأوماً موافقاً . منه اليها ، أي "بعد كان بينها واي تفاهم خفي" ، في آن واحد .. وتركها امام بيتها . وكانت قد فتحت مظلتها . قالت :

- آمل ان نلتقي .

قال مرسو : « نعم » .

وابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة . قال مرسو :

- أوه . ان لك الآن وجه الفتاة الصغيرة .

كانت قد انسحبت تحت الباب واغلقت مظللتها . ومدّ لها باتريس يده  
وابتسم بدوره :

— الى اللقاء ، يا تجلّ .

وشدت عليها بسرعة ، وفجأة قبلته من وجنتيه ، وصعدت السلم  
وهي تركض . وظل مرسو تحت المطر ، وكان ما يزال يحس على وجنتيه انف  
مارت البارد وشفقتها الحارّتين .

وتلك القبلة العجائية المتجرّدة ، كان لها التقاء كله الذي كان لقبلة بغبي فيينا  
الصغيرة ذات النمش .

ومع ذلك ، فقد ذهب للاقاة لوسيان ، ونام عندها . وفي اليوم التالي  
طلب منها ان يسيرا على البولفار . كانت الساعة تقارب الظهر عندما هبطا .  
وكانت اصداق وردية تجف في الشمس كثمار مقسمة الى حصص . رهبط  
طيران مزدوج للحمام واطلال الحمام نحو المرايا ليصعد في الحال بانحناءة  
بطيئة . وكانت الشمس المتألقة تدفيء بمذوبة . وكان مرسو ينظر الى ناقل  
البريد الاحمر والاسود يخرج على مهل من المضيق البحري فيزيد من سرعته ثم  
ينعطف نحو حاجز النور الذي كان يزيد عند التقاء السماء والبحر . ان في كل  
رحيل ، بالنسبة للانسان الذي يشاهد رحيلاً ، عذوبة مرّة . قالت لوسيان :  
— انهم محظوظون .

فقال باتريس « نعم » وكان يفكر « لا » ، او أنه كان على الاقل لا يحسدهم  
على هذا الحظ . صحيح ان الاستنافات ، والرحلات ، والحيات الجديدة كانت  
بالنسبة اليه ايضاً ، تحتفظ بجاذبيتها ، ولكنه كان يعلم ان السعادة لا تتعلق بها الا في  
ذهن الكسالى والعاجزين . كانت السعادة تفترض اختياراً ، وداخل هذا  
الاختيار إرادة مدبّرة وواعية . كان يسمع صوت زغرو : « ليس بارادة  
الرفض ، ولكن بارادة السعادة » .

كانت ذراعه تحيط لوسيان ، وفي يده كان يستريح نهد المرأة الدافئة اللدن .

في المساء نفسه ، وفي السيارة التي كانت تعيده الى شتوة ، كان مرسو يحسّ أمام انتفاخات المياه والروابي المنبعثة فجأة ، بصمت كبير في ذاته . وكان في تصنعه بعض الاستثناءات ، وفي وعيه لحياته الماضية ، قد حدد في ذاته ما كان يريد وما كان لا يريد أن يكونه . وهذه الأيام من التشتت التي كانت قد أخجلته كان يعتبرها خطرة ، ولكن ضرورية ، وكان من الممكن أن يفرق فيها ويفوتّ إذ ذاك تبريره الوحيد . ولكن كان عليه أيضاً أن يتلام مع كل شيء .

وبين ضربتي كايح ، كان مرسو متشعباً بهذه الحقيقة ، التي تُتجبل والتي لا تقدر بشمن في الوقت نفسه ، حقيقة أن السعادة الفريدة التي يبحث عنها كانت تجد شروطها في اليقظات الصباحية ، والحمامات المنتظمة ، وسلامة الصحة الواعية . كان ينطلق مسرعاً جداً ، مصمماً على ان يستفيد من انطلاقاته ليستقر في حياة لن تتطلب منه فيما بعد أية جهود ، ليؤلف تنفسه مسح الايقاع العميق للزمن والحياة .

وفي صباح اليوم التالي نهض باكراً ونزل نحو البحر . كان البحر إذ ذاك في تمام إشراقه ، وكان الصبح محملاً باختلاجات أجنحة وزقزقة عصافير . ولكن الشمس كانت تلامس فقط المنحاة الأفق ، وعندما دخل مرسو في الماء الذي كان يعدّ بلا لمان ، خيل اليه أنه يسبح في ليل حائر ، حتى إذا ارتفعت الشمس ، غطّس ذراعيه في مساكب من الذهب الاحمر الثلج . وفي هذه اللحظة عاد ، ودخل بيته ، وأحس جسده خفيفاً ومستعداً ان يتلقى كل شيء . وفي الصباحات التي تلت ، كان ينزل قبيل بزوغ الشمس .

وكانت هذه الحركة الأولى تتحكم في باقي نهاره . والحق ان هذه الاستحمامات كانت تتبعه ، ولكنها كانت في الوقت نفسه ، بما كانت تخلّفه له من ضعف ومن طاقة ، تمنح يومه كله مذاقاً من الاستسلام والتعب السعيد . ومع ذلك ،

فقد كانت نهاراته تبدو له طويلة ما تزال . لم يكن قد حل وقته بعد من هيكمل عادات كان يتخذها كصوى ومعالم . لم يكن لديه ما يفعله ، وكان وقته يأخذ بالتالي كل امتداده . كانت كل دقيقة تجذب قيمتها الأعجوبية ، ولكنه لم يكن يتعرف عليها بعد بهذه الصفة . وكما كانت الأيام في السفر ، تبدو لا نهاية لها ، بينما كان انقضاء الفترة في المكتب بين الاثنين والأثنين يتم بلحظة عين ، كذلك فانه ، وقد حرم من ركائزه ، كان يحاول ان يستعيد لها في حياة لم يكن فيها مع ذلك ما يفعله . كان أحياناً يمسك ساعة وينظر إلى العقرب وهو ينتقل من رقم إلى آخر ، فيذهله ان تبدو له خمس دقائق وقتاً لا ينتهي . وبما لا شك فيه ان هذه الساعة قد فتحت له الطريق الشاق المعذب الذي يقود إلى الفن الأعظم : فنّ عدم القيام بشيء . وتعلم ان يتزده . وعند العصر ، كان أحياناً يسير بمحاذاة الشاطيء حتى الحرائب على الطرف الآخر ، وكان يرقد عندها في الأبنست ويده على حرارة حجر ، وكان يفتح عينيه وقلبه على عظمة هذه السماء المننوقة بالحرارة ، تلك العظمة التي لم تكن لتحتمل . وكان يؤالف نبضات دمه مع نبضات الشمس العنيفة عند الساعة الثانية ، وإذ يكون غاطساً بين الروائح المتوحشة وموسيقى الحشرات الناعسة ، فانه ينظر إلى السماء تنتقل من الأبيض إلى الأزرق الصافي ، لتهوي فيما بعد حتى اللون الأخضر وتفرغ عدويتها وحنوها على الحرائب التي ما تزال حارة . إذ ذاك كان يعود باكراً وينام . وفي هذا السباق من شمس الى شمس أخرى ، كانت أيامه تنتظم وفق ايقاع اصبح بطؤه وغرابته ضروريين بالنسبة له ضرورة مكتبه ومطعمه ونومه في الماضي . وفي الحاليتين كليهما كان لا واعياً تقريباً . اما الآن فقد كان على الاقل ، في ساعات صفائه ، يحسّ ان الوقت كان ملكه ، وانه في هذه اللحظة القصيرة التي تمتد ما بين البحر الأخضر والبحر الأزرق ، كان شيء أبدي يتمثل له في كل ثانية .

وليس أكثر من السعادة الفؤبشرية ، لم يكن يستشف أبدية خارج الخناء الأيام . كانت السعادة بشرية والأبدية يومية . وكان كل شيء يكمن في ان يعرف



الانسان أن يتواضع وان ينظم قلبه مع ايقاع الأيام ، بدلاً من أن يحني ايقاعها وفق انحناءة أملنا .

وكما أنه ينبغي معرفة التوقف في الفن ، وأن لحظة ما تأتي دائماً ينبغي فيها لمنحوتة ما ان لا تمس بعد ، وان رغبة في الغناء تخدم فنانا ، بهذا الصدد ، أكثر من أشد وسائل التبصر إرهافاً ، كذلك لا بد من حد أدنى من الغناء لاستكمال السعادة لحياة ما .

من جهة أخرى ، كان مرسو يلعب البليار يوم الاحد ، مع بيريز . كان بيريز اکتع . وكانت ذراعه المبتورة مقطوعة فوق الكوع . وهكذا كان يلعب بطريقة غريبة ، فكان يكوّر جذعه ويسند جده على طرفها . وعندما كان مرسو يذهب ليصطاد صباحاً ، كان يعجب دائماً ببراعة الصياد الشيخ الذي كان يمسك بجذاه الأيسر تحت ابطه ويقف منتصباً في المركب ، وجسمه مائل فيدفع احد الجذافين بصدوره والآخر بيده . وكان كلاهما متقامين الى أبعد حد . وكان بيريز يصنع الجبار بمرقة لاذعة ، فكان يطحنها بمصيره . وكان مرسو يتقاسم معه المرقة السوداء الملتهبة التي كان كلاهما يغمسها بالخبز في مقلاة مليئة بالشحم في مطبخ الصياد . ولم يكن بيريز ، من جهته ، يتكلم ابداً . وكان مرسو معترفاً له بقدرته على الصمت . وكان احياناً ، عند الصباح ، بعد الحمام ، يراه وهو يلقي مركبه في البحر ، فكان يتقدم إذ ذاك قائلاً :

— هل اذهب معك يا بيريز ؟

وكان الآخر يقول : — اركب .

وإذ ذاك كانا يضعان الجذافين على مسكينين مختلفين ويحذفان معاً محاذرين ( مرسو على الأقل ) ان يربكا أقدامها بصنانير الجبال . ثم كانا يصطادان ، وكان مرسو يراقب الخيوط اللعاعة حتى سطح البحر ، متموجة وسوداء تحت

الماء . كانت الشمس تتكسر على الماء ، ألوفاً من الشظايا ، وكان مرسو يستنشق رائحة ثقيلة خانقة كانت تصدر من البحر كأنها تنفّس . وكان بيريز أحياناً يخرج سمكة صغيرة . فكان يرميها للحال قائلاً : « اذهبي الى أمك ! » وعند الحادية عشرة كانا يعودان ، فكان مرسو ، ويداه ملتصقتان بالقشور ، ووجهه منتفخ بالشمس ، يرجع الى منزله كما لو انه يدخل قبواً رطباً ، بينما كان بيريز يذهب ليهيء طبقاً من السمك كانا يأكلانه معاً عند المساء . ويوماً بعد يوم ، كان مرسو يمضي في حياته كما كان يمضي في الانزلاق على الماء . ولما كان الانسان يتقدم بفضل مشاركة الذراعين والماء الذي يحمل وينقل ، فقد كان يكفيه بعض الحركات الرئيسية ، يد على جذع شجرة او ركض على شاطئه ، ليتأسك كاملاً وواعياً : هكذا كان يدرك حياة في حالتها النقية ، وكان يسترد نعيماً لم يكن يوهب إلا لأكثر الحيوانات حرماناً من الذكاء أو أكثرها هبة منه . وعند هذا الحد الذي ينكر فيه الفكر الفكر ، كان يلامس حقيقته ومعها مجده وحب الأقصيين .

وبفضل برنار ايضاً ، كان يمتزج بحياة القرية . لقد كان مضطراً الى استدعائه بسبب وعكة بسيطة ، ثم تقابلا فيما بعد وغالباً بسرور . كان برنار صموتاً ، ولكن صمته كان مصحوباً بنوع من الفكر المرير كان يضيء اشعاعات في نظارتيه المقشّرتين . كان قد مارس مهنته طويلاً في الهند الصينية ثم انسحب في الأربعين الى هذا الركن من الجزائر . وهو منذ بضع سنين يمضي فيها حياة هادئة مع امرأته ، وهي هندية صينية شبه خرساء ، ذات شعر مرفوع على شكل كعبيكة وثوب عصري . وكان برنار ، بفضل قدرته على التسامح ، يتألف مع جميع الاوساط . وبهذا كان يحب القرية كلها وكان محبوباً منها . وكان يرافق مرسو اليها .

كان مرسو يعرف جيداً مدير الفندق ، وهو صادق قديم كان يقضي عند مكتبه ، وبين مقطعين من « التوسكا » كان يعد امرأته بضربة . وقد طلب من باتريس ان يشارك مع برنار في لجنة الاعياد .

وفي أيام الأعياد ، ١٤ تموز أو غيرها ، كانا يتنزهان وعلى الذراع ساعدة ذات ثلاثة ألوان أو كانا يتناقشان مع بقية الاعضاء ، حول طاولة من الكتان الاخضر لزجة بالمقبلات السكرية ، إذا كانت منصة الموسيقين محاطة بشجر المضاض او سعف النخل. بل لقد أرادوا ان يجروه يوماً الى صراع انتخابي ، ولكن مرسو كان قد اتيح له ان يعرف المختار ، وكان « يشرف على مصائر بلدته » ( كما كان يقول ) منذ عشر سنين. وشبه الخلود هذا كان يحذو به الى ان يظن نفسه نابليون بونابرت. كان كراماً قد أفرى حديثاً ، فبنى لنفسه بيتاً على الطراز اليوناني . وكان قد دعا اليه مرسو ، وكان يتألف من طابق ارضي يعالوه طابق . ولكن المختار لم يكن يتراجع امام اية تضحية ، فكان ان زوده بمصعد . وقد جعل مرسو وبرنار يجربانه ، فقال برنار يهدوء : « انه ينزل جيداً » . ومنذ ذلك اليوم ، أكن مرسو اعجاباً عميقاً للمختار. وكان هو وبرنار يستعملان تأثيرهما بكامله لكي يبقياه في الوظيفة التي كان يستأهلها بفضل كثير من المزاي .

وفي الربيع كانت القرية ذات السقوف الحمراء المتقاربة ، بين الجبل والبحر ، تعود فتختنق بالزهور والورود والجنبات المعترشة وبطنين الحشرات. وفي ساعة القيلولة ، كان مرسو يدلف الى سطيحته وينظر الى القرية تنام وترسل بخارها تحت الاشمة الفائضة . وكان تاريخ القرية يكمن في الخصام بين موراليس وبنغيس ، وهما معمران اسبانيان ثريان ، كانت سلسلة من المضاربات قد حولتها الى مليونيرين . ومنذ تلك اللحظة ، كانت حمى العظمة قد امتلكتها . فعندما كان احدهما يشترى سيارة ، كان ينتقي أغلاها ثمناً . ولكن الآخر الذي كان يشترى مثلها كان يضع عليها مقابض من الفضة. وكان المبقري في هذه الحالة هو موراليس الذي كانوا يطلقون عليه لقب «ملك اسبانيا» ذلك انه في كل شيء ، كان قد انتصر على بنغيس الذي كان يفتقر الى الخيال .

ففي اليوم الذي اكتب فيه بنغيس ، اثناء الحرب ، بعدة مئات من آلاف الفرنكات للقرض الوطني ، صرح موراليس بقوله: « أنا أفضل احسن ، انني اعطي ابني » . وجند ابنه الذي كان ما يزال صغيراً ... وفي عام ١٩٢٥ ، كان بنغيس قد وصل من مدينة الجزائر بسيارة سباق فخمة من طراز « بوغاتي » . وبعد خمسة عشر يوماً ، كان موراليس قد بنى لنفسه مرأباً واشترى طائرة « كودرون » وكانت هذه الطائرة ما تزال ترقد في مرأبها .

يوم الاحد فقط كانوا يعرضونها امام الزوار . وعندما كان بنغيس يتحدث عن موراليس كان يقول : « هذا العاري - القدمين » وكان موراليس يقول عن بنغيس : « قمينة الجير هذا » .

واصطحب برنار مرسو الى بيت موراليس ، فاستقبلها هذا في المزرعة الكبيرة المليئة بالزنابير وبروائح العنب ، استقبالاً مطبوعاً بكل دلائل الاحترام ، ولكنه كان يلبس حذاء الرياضة وقميصاً قصير الاكمام ، لأنه لم يكن يستطيع تحمل السترة والحذاءين . وقد عرض عليها الطائرة ، والسيارات ، ومداييل الابن المؤطرة والمعروضة في الصالون . واخذ موراليس يشرح لمرسو ضرورة إبعاد الاجانب عن الجزائر الفرنسية ( كان هو متجنساً « اما بنغيس ذاك ، مثلاً » ) ثم قادها الى اكتشاف جديد - فدخلوا حقلاً واسماً للعنب اقيمت في وسطه مستديرة . وفي هذه المستديرة صفت طقم من طراز لويس الخامس عشر ، صنع بأفخر الخشب والقماش . وهكذا كان موراليس يستطيع ان يستقبل ضيوفه في أراضيه . وقد أجاب على مرسو الذي كان يستعلم بأدب عما كان يحدث في أوقات المطر ، اجاب موراليس من دون ان يهتز من فوق سيارته : « انني أستبدله » . وكانت العودات مع برنار تقضى إذ ذاك في تمييز الثري الكبير من الشاعر . فقد كان موراليس ، في نظر برنار ، شاعراً . وكان مرسو يفكر انه كان جديراً به ان يكون امبراطوراً رومانياً رائعاً في عهد الانحطاط .

وبعد فترة من هذا الوقت ، أتت لوسيان لتقضي بضعة ايام في الشنوة ثم

رحلت . وذات احد صباحا ، أتت كلير وروز وكاترين يرددن الزيارة لموسوكا  
كن قد وعدته . ولكن باتريس كان الآن بعيداً جداً عن الحالة الفكرية التي  
كانت قد دفعته الى مدينة الجزائر في الأيام الأولى لعزلته . ومع ذلك فقد  
سعد لرؤيتهم من جديد . وقد ذهب لاصطحبهم مع برنار عند موقف الباص  
الكناري الكبير الذي كان يقوم بالخدمة . كان اليوم رائعاً ، والقرية مكتظة  
بمربات القصابين المتجولين الجميلة الحمراء وبالورود الكثيفة والناس المرتدين  
الوانا زاهية . وقد جلسوا لحظة في مقهى ، بنساء على طلب كاترين . كانت  
تأمل باعجاب هذا الاثقال وهذه الحياة ، وخلف الحائط الذي كانت تستند اليه  
كانت تحزر وجود البحر . وفي لحظة الذهاب انفجرت موسيقى مذهلة في  
شارع قريب جداً . كان ، بلا شك ، «مارش التوريادور» في «كارمن» ،  
ولكنه كان من الصخب والحيوية بحيث انه كان يحول دون ان تحتفظ الآلات  
بدورها . قال برنار : «إنه مجتمع الرياضة» . ومع ذلك فقد لوحظ انبثاق  
عشرين موسيقياً مجهولاً كانوا لا يكفون عن النفخ في الآلات الهوائية المختلفة ،  
ثم انبثق من خلفهم موراليس ، على رأسه قبعة قش مرتدة الى خلف وموضوعة  
على مندبل ، فيما كان يترطب بمروحة دعائية . كان قد استأجر هؤلاء الموسيقيين  
من المدينة لأنه ، كما فسر ذلك فيما بعد ، بهذه الأزمة تبدو الحياة حزينة أكثر مما  
ينبغي . وقد جلس ورتب من حوله الموسيقيين الذين أنهموا لحن سيرم . كان  
المقهى مكتظاً بالجمهور . إذ ذاك نهض موراليس ، وبحركة دائرية قال بوقار :  
«بناء على طلبي ، ستعزف الفرقة الموسيقية من جديد «توريادور» .

وكانت الحمقوات الصغيرات ، عند ذهابهن ، يخبطن من الضحك . ولكن  
حين وصلن الى البيت ، في ظل الغرف التي كانت تحيل البياض المتألق للجدران  
المليئة بشمس الحديقة أكثر حساسية ، وجدن من جديد صمتاً وتجاوبا عميقا  
عبر عن ذاته ، عند كاترين ، بالرغبة في أخذ حمام شمسي على السطحة . عند  
ذلك أعاد مرسو برنار . وكانت هذه هي المرة الثانية التي كان برنار يطلع فيها

على شيء من حياة مرسو . ولم يسبق لها قط ان تكاشفا بشيء ، إذ كان مرسو  
يعني أن برنار لم يكن سعيداً ، وكان برنار حائراً بعض الشيء أمام حياة مرسو .  
وقد افترقا من غير ان يقولوا كلمة . واتفق مرسو مع صديقاته على الذهاب في  
رحلة صباح الغد الباكر . كانت الشنوة عالية جداً ، وكانت صعبة التسلق . وقد  
كان ثمة يوم جميل من التعب والشمس ينتظرم .

في الصباح الباكر ، تسلقوا المنحدرات الاولى القاسية . كانت روز وكلير  
تتقدمان ، وكان باتريس يقفل المسيرة مع كاترين . كانوا صامتين . وكانوا يرتفعون  
شيئاً فشيئاً فوق البحر الذي كان ما يزال أبيض بين غيوم الصباح . وكان باتريس  
يلتزم الصمت ايضاً ؛ مندجماً كلياً بالجبل ذي القمة الملوطة المشعث بالسورنجان ،  
وبالينابيع المثلوجة ، وبالظل والشمس ، وبجسده الذي كان يوافق ثم يرفض .  
كانوا يلجون جهد السير المكثف ، ونسيم الصباح في رئاتهم كحديد محمي او  
موسى محدّدة ، مالمحين انفسهم كلياً لهذه المثابرة ولهذا التفوق على الذات اللذين  
كانا يجهدان لينتصرا على المنحدر . واحست روز وكلير بالتعب ، فأبطأتا سيرهما .  
فتقدمت كاترين ومرسو ، وما لبثتا ان غابا عن نظرهما .

قال باتريس : « هل كل شيء على ما يرام ؟ »

قالت : « نعم . هذا جميل جداً » .

كانت الشمس ترتفع في السماء ، ومعها صرير حشرات كان يتفاقم مع  
الحرارة . وفيما بعد خلع باتريس قميصه ، وتابع طريقه عاري الصدر . كان  
العرق يسيل على كتفيه ، حيث كانت الشمس قد شالت قشارة الجلد . وسلكا  
طريقاً صغيرة كانت تبدو محاذية جنب الجبل . وكانت الاعشاب التي كانا  
يسحقانها اكثر نداوة . وما لبث ان استقبلها صوت ينابيع وتدفق نداوة  
وظلال . ورشّ أحدهما الماء على الآخر ، وشربا قليلاً ، ثم تمدّدت كاترين على  
العشب ، بينما كان باتريس ، وشعره مسود من المساء ومشوك على جبينه يخفض  
عينيه أمام المشهد المغطى بالخرائب ، وبالطرقات اللعاعة ويتألقات الشمس ، ثم

جلس قرب كاترين .

قالت كاترين :

— مرسو ، ما دمنا وحدنا ، قل لي ان كنت سعيداً ؟

قال مرسو :

— انظري .

كانت الطريق تهتز في الشمس ، وكانت طائفة كبيرة من البكتيريات المتعددة الألوان تصعد اليها . وكان باتريس يبتسم ويداعب ذراعيه .

— أردت فقط ان اسألك . وبالتأكيد ، فانك لن تجيب إن كان ذلك يعجبك .  
( وترددت ) هل تحب زوجتك ؟

ابتسم مرسو :

— ليس هذا من الضروري .

وأمسك بكنتف كاترين ، ورشّ بالماء وجهها وهو يحني رأسه وأضاف يقول ،

— الخطأ ، يا كاترين الصغيرة ، هو الاعتقاد بوجود الاختيار ، بوجود عمل ما زريده ، بان هناك شروطاً للسعادة . ان ما يهم فقط ، هو إرادة السعادة ، نوع من الوعي الهائل الحاضر ابدأ . أما الباقي ، النساء ، الأعمال الفنية أو النجاحات الدنيوية ، فليس إلا ذرائع . انه شبكة تنتظر تطريزاتنا .

قالت كاترين وعيناها ملبثتان بالشمس :

— نعم .

— ان ما همني انما هي صفة معينة للسعادة . انني لا استطيع ان أتذوق السعادة إلا في المواجهة العنيدة العنيفة التي تقوم بها مع نقيضها . تسأليني ان كنت سعيداً ؟ كاترين ! انك تعرفين القول المأثور : « لو كان عليّ أن أعيد

حياتي . فاني سأعيدها كما هي . وبالطبع ، لا يمكنك ان تعرفي ما يعنيه ذلك .  
قالت كاترين : لا .

— كيف أفسر لك ذلك ، يا صغيرتي . لئن كنت سعيداً ، فذلك  
بفضل احساسني بالخطأ . لقد كنت بحاجة الى الرحيل والى كسب هذه الوحدة  
التي استطعت فيها ان اواجه في نفسي ما كان ينبغي مواجهته ، ما كان شمساً  
وما كان دموعاً .. اجل ، انني ، بشرياً ، سعيد .

ووصلت روز وكلير ، فاستأنف الجميع السير . كان الطريق ما يزال يحاذي  
الجبل تاركاً إياهم في منطقة نباتية غزيرة . وكانت الطرق ما تزال محاطة  
بشجر الصبار والزيتون والعناب . وكانوا يلتقون بعرب يركبون حميراً . ثم  
صعدوا . كانت الشمس تصفع الآن بضربات محتدمة كل حجر في الطريق . وعند  
الظهر ، كانوا مسحوقين بالحرارة ، سكارى من العطور والتعب ، فرموأ كياسهم  
وتخلوا عن بلوغ القمة . لقد كانت المنحدرات صخرية ومليشة بالصوان .  
وظللتهم شجرة سديان ضامرة بظلمها المستدير . وسحبوا المئون من الأكياس  
وأكلوا . كان الجبل كله يرتج تحت الأشعة واليزان ؛ وكانت الحرارة تصعد  
فتحاصرهم تحت سديانهم . وانقلب باتريس على الأرض ملتصق الصدر  
بالاحجار فتنشق عبيراً لاهباً . وكان يتلقى في بطنه ضربات الجبل الخرساء  
الذي كان يبدو في حالة عمل . وانتهت رقابة تلك الضربات ، وغناء الحشرات  
المصم بين الاحجار الحارة والعطور البرية — انتهت بان أنامته .

عندما استيقظ كان مكسواً بالمرق ، متيسباً . وكانت الساعة تقارب  
الثالثة ، وكانت الفتيات قد اختفتين . وما لبثت ضحكات وصيحات ان انبأت  
عنهن . وكانت الحرارة قد خفست . كان ينبغي الهبوط من جديد . وفي تلك اللحظة  
بالذات ، ولأول مرة ، في منتصف الطريق ، أصيب مرسو باغواء . وحين نهض ، لمح  
البحر شديد الزرقة من خلال ثلاثة وجوه قلقة . واستأنفوا الهبوط على مهل ،  
وعند المنحدرات الاخيرة ، طلب مرسو استراحة . كان البحر يخضر مع السماء ،



وكانت عذوبة تامة تصعد من الأفق وعلى الروابي التي كانت تمتدّ الشنوه حول  
الجون الصغير ، كانت شجرات السرو تسود على مهل . كانوا جميعاً صامتين ،  
ومع ذلك قالت كلير :

– يبدو عليك التعب .

– بلا شك . ابتها الفتاة الصغيرة .

– إسمع . ان الأمر لا يعنيني . ولكن هذه المنطقة لا تناسبك في شيء .  
إنها مفرطة القرب من البحر ، مفرطة الرطوبة . فلماذا لا تذهب لتعيش في  
فرنسا ، في الجبال ؟

– هذه النقطة لا تفيدني شيئاً ، يا كلير ، ولكنني سعيد فيها . انني احس  
بوقاق مع نفسي .

– انما ادعوك الى هذا لكي تستطيع ان تكون كذلك كلياً ولمدة اطول .

– لا يعيش المرء سعيداً لمدة أقصر او أطول . انه يكون سعيداً ، هذا كل  
شيء . والموت لا يمنع شيئاً . انه عارض طارئ للسعادة في هذه الحالة .

وسكتوا جميعاً . ولكن روز قالت بعد فترة :

– لست مقتنعة .

وعادوا الى البيت على مهل في المساء الهابط .

وتكفّلت كاترين باستدعاء برنار . وكان مرسو في غرفته ، ومن فوق  
ظلّ مربعات البيت اللعاع ، كان يرى بقعة الدرابزون البيضاء ، والبحر كشریط  
من القماش الداكن المتعوج يعلوه الليل الاكثر إضاءة ، وان كان بلا نجوم . وكان  
يحس الضعف . ولكن ضعفه ، بفضل أعجوبة خيرة ، كان يخفف من همته ويجعله صافياً .  
وحين طرقت برنار الباب ، أحس مرسو بأنه سيقول له كل شيء ليس بسبب

ان سره يثقل عليه . فانه لم يكن في ذلك أي سر . فلئن كان قد كتم سره حتى الآن ، فإنا كان ذلك بالقدر الذي يحفظ به المرء افكاره في بعض الاوساط لأنه يعلم انها ستصدم الافكار المسبقة والعبادة . ولكنه اليوم ، بالرغم من كل تعب جسده وصدقه العميق ، فان مرسو ، شأنه في ذلك شأن الفنان بعد ان يكون قد داعب وبنى لفترة طويلة عمله واحس بضرورة اخراجه الى النور والتواصل اخيراً مع البشر ، ان مرسو كان يحس أن عليه ان يتكلم . ومن غير ان يكون متأكداً من انه سيفعل ذلك ، كان ينتظر برنار بنفاد صبر .

ومن غرف الطابق الارضي تصاعدت ضحكتان نديتان جعلتاها بيتسم .  
في هذه اللحظة ، دخل برنار ، فقال :

– ما المسألة ؟

قال مرسو : كما ترى .

وضع الساعة على صدره . لم يكن باستطاعته ان يقول شيئاً . ولكنه كان يود ان يجري له تصويراً على الأشعة ، اذا كان يقوى على ذلك .

وأجاب مرسو : – فيما بعد .

صمت برنار وجلس على حافة كوة النافذة ، ثم قال :

– انني لا احب ان اكون مريضاً ، انا . انني اعرف ما يعنيه ذلك . ليس هناك ما هو قبيح ومُحطّ اكثر من المرض .

كان مرسو غير مكترث . وقد نهض من مقعده ، وقدم لفائف لبرنار فاشعل واحدة منها وهو يضحك :

– هل تستطيع ان اطرح عليك سؤالاً يا برنار ؟

– نعم .

— انك لا تأخذ حمامات بجر قط ، فلماذا إذن كنت قد اخترت هذا المكان لتمتزل ؟

— آه ! إنني لا أدري تماماً . كان ذلك منذ زمن بعيد .  
وبعد فترة أضاف :

— ثم انني تصرفت دائماً بدافع من ضغينة . اما الآن فقد تحسنت الأمور . في السابق ، كنت أريد ان اكون سعيداً ، وان اعمل ما ينبغي عمله ، ان استقر مثلاً في بلد يروق لي . ولكن الاستباق العاطفي هو دائماً زائف . وإذن ، فيجب ان نعيش كأهل ما نستطيع ان نعيش ، وألا نقترس الأمور . ان ذلك فظ بعض الشيء . ولكنه ايضا وجهة نظر اجمل فتيات العالم . في الهند الصينية ، مضيت الى أبعد الحدود . أما هنا فانني أجتز . ببساطة .

قال مرسو ، من غير ان يتوقف عن التدخين ، وهو غاطس في مقعده ينظر الى السقف :

— نعم ، ولكنني لست متأكداً من ان كل استباق عاطفي هو زائف . ان هذه الاستباقات هي فقط ضالة . وعلى كل حال ، فان التجارب الوحيدة التي تهمني هي تلك التي يكون فيها كل شيء بالضبط كما نأمل ان يكون .

وابتسم برنارد :

— اجل ، مصير وفق المقاييس .

قال مرسو ، من غير ان يتحرك :

— ان مصير انسان ما ، هو دائما أخذ إذا استطاع ان يتوجه بشغف . ومصير أخاذ ، بالنسبة للبعض ، هو دائما مصير وفق مقاييس .

قال برنار : « نعم » . ونهض بجهد ونظر لحظة الى الليل ، وظهره متجه بعض الشيء نحو مرسو .

ومن غير ان ينظر اليه ، استأنف يقول :

– انك معى في هذا البلد الرجل الوحيد الذي يعيش بلا رفقة . اننى لا اتحدث عن زوجتك وعن اصدقائك . فأنا اعرف جيداً انهم أحداث عرضية ، ومع ذلك ، فيبدو عليك انك تحب الحياة اكثر منى ( واستدار اليه ) ذلك ان حب الحياة ، بالنسبة لى ، ليس أخذ الحمامات ، بل ان يعيش المرء بطريقة مدوّخة ، جاجة . نساء ، ومغامرات ، وبلاد. ان تعمل ، أن تخضع شيئاً ما. حياة ملتبهة ومدهشة . أقصد ... لفهمنى ... ( كان يبدو وكأنه خجل من ان يكون قد تحمس ) اننى اكثر حبا للحياة من ان اشقى غلتي من الطبيعة .

كان برنار يلتقط مساعه ويفلق حقيبة عدته . فقال له مرسو :

– إنك في الواقع مثالي .

لقد كان لديه هو الشعور بان كل شيء كان محصوراً في هذه اللحظة التي تمتد من الولادة حتى الموت ، وان كل شيء يحكم عليه ويكرّس هنا .

قال برنار بنوع من الحزن :

– الواقع أن نقيض المثالي هو ، في غالب الاحيان ، رجل بلا حب .

قال مرسو وهو يمد اليه يده :

– لا تعتقد ذلك .

وشد برنار عليها فترة طويلة ، ثم قال مبتسماً :

– إذا اردنا التفكير مثلك ، فلن يكون هناك إلا رجال يعيشون على يأس كبير أو أمل كبير .

– ربما على الاثنين .

– أوه ، اننى لا أطرح سؤالاً

قال مرسو بجهد :

– انني اعلم .

ولكن حين بلغ برنار الباب ، ناداه مرسو ، مدفوعاً باندفاع لاواعٍ :

قال الطيب وهو يلتفت : « نعم » .

– هل انت قادر على ان تكن احتقاراً لانسان ؟

– أظن .

– بأية شروط ؟

وفكر الآخر :

– يبدو لي ان ذلك بسيط بما فيه الكفاية . في جميع الحالات التي يكون فيها

المرء مدفوعاً بالمصلحة او بحب المال .

قال مرسو :

– هذا بسيط ، بالفعل . مساء الخير يا برنار .

– مساء الخير .

وإذ بقي مرسو وحيداً ، أخذ يفكر . الى الحد الذي بلغه ، فان احتقار انسان كان يتركه لا مبالياً . ولكنه كان يجد لدى برنار اصداً عميقة كانت تقربه منه . وكان يبدو له غير محتمل ان يدين قسم منه القسم الآخر . أترأه كان قد تصرف بدافع المصلحة ؟ كان قد وعى هذه الحقيقة الاساسية واللا أخلاقية بأن المال هو احدى الوسائل الأضمن والأمرع لكي يكتسب كرامته . وكان قد توصل الى طرد المرارة التي تستولي على كل نفس كريمة النسب وهي تتأمل ما في ولادة مصير جميل وشروط نموه من ظلم ونذالة . وتلك اللعنة القذرة المثيرة التي تجعل الفقراء يُنهون في البؤس الحياة التي بدأوها في البؤس ، كان قد أبعدا وهو يحارب المال بالمال ، ومع الكراهية الكراهية . ومن هذا الصراع بين وحش ووحش ، كان يتفق احياناً ان يخرج الملاك ، منغمساً باكملة في سعادة جوانحه ومجده ، تحت نفحة البحر الدافئة . كان يبقى فقط انه لم يكن قد قال شيئاً لبرنار وان

عمله سيظل بعد الآن سراً .

في عصر اليوم التالي ، حوالي الساعة الخامسة ، ذهب الصديقات . وفي لحظة الصعود الى الأوتوبيس ، التفتت كاترين الى البحر وقالت :

— الى اللقاء ، ايها الشاطيء .

وبعد لحظة ، كانت ثلاثة وجوه ضاحكة تنظر الى مرسو عبر زجاج الداخل . وكحشرة ضخمة مذهبة ، كان الأوتوبيس الاصفر يخترق في الأشعة . وبالرغم من ان السماء كانت صافية ، فقد كانت خانقة بعض الشيء . وإذا كان مرسو وحيداً في الطريق كان يحس في اعماق قلبه مزيجاً من الخلاص والحزن . اليوم فقط كانت وحدته تصبح حقيقية لأنه اليوم فقط كان يحس نفسه مرتبطاً بها . وان يكون قد قبلها ، وان يدرك انه بعد الآن سيد أيامه القادمة ، فان ذلك كان يلاؤه بالكآبة التي تلتصق بكل عظمة .

وبدلاً من ان يسلك الطريق الرئيسية ، عاد بين شجرات الخرنوب والزيتون في ممر صغير منحرف كان يمر عند اسفل الجبل وينتهي خلف بيته . وقد سحق بقدمه بعض حبات الزيتون ولاحظ ان الطريق كان باكملة مغطى بالبقع السوداء . في آخر الصيف ، كانت شجرات الخرنوب تضيء رائحة حب على الجزائر كلها . وفي المساء او بعد المطر ، كانت الارض كلها تبدو وكأنها ، بعد ان تكون قد منحت نفسها للشمس ، تريح بطنها المبتلى ببيذار عطرها كعطر اللوز المر . وطوال النهار ، كانت رائحتها قد هبطت من الشجرات الكبيرة ، ثقيلة وخانقة . وفي هذا الممر الصغير ، مع المساء ، وتأوه التربة الرخوي ، كانت الرائحة تغدو خفيفة ، لا يكاد انف باتريس يحسها كمشيقة تخرج معها في الطرقات بعد عصر خانق ، فتنظر اليك ، وكتفها لصق كتفك ، وسط الاضواء والناس .

امام رائحة الحب هذه وثمراتها المسحوق العطرة ، أدرك مرسو أن الموسم ينتهي ، وان شتاء كبيراً سيطل . كان ناضجاً لانتظاره . ومن هذا

الممر ، لم يكن البحر يرى ، ولكن كان باستطاعة المرء ان يلاحظ عند قمة الجبل غيوماً خفيفة حمرة كانت تبشر بالمساء . وعلى الارض ، كانت بقع من الأشعة تشحب بين ظلال الاغصان .

وتنشق مرسو بعنف الرائحة المرة العطرة التي كانت تكرر في ذلك المساء عرسها مع التربة . وهذا المساء الذي كان يهبط على العالم ، في الطريق بين شجرات الزيتون والمصصكا ، على الكروم والتربة الحمراء ، قرب البحر الذي كان يهدر يهدوء ، هذا المساء كان يدخل فيه كالمسد . كثير من الامسيات الشبيهة كانت في نفسه كوعد بالسعادة . وأن يحس بهذه الأمسية كسعادة ، ذلك ما جعله يقيس الطريق الذي كان قد اجتازه من الأمل حتى النصر . وفي براءة قلبه ، كان يتقبل هذه الساء الخضراء وهذه الارض التي يبللها الحب ، بارتعاشه الهوس والشهوة نفسها التي تملكته حين قتل زغرو في براءة قلبه .

## الفصل الخامس



في كانون الاول ، أزهرت شجرات اللوز . وفي آذار ، اكتست شجرات الإجاص والدراق والتفاح بالازهار . وفي الشهر الذي تلا ، ربت الينابيع ربواً غير ملحوظ ، ثم عادت الى منسوب طبيعي . وفي أوائل أيار قطعوا الحشيش ، وفي الايام الاخيرة ، حصدوا الشوفان والشعير . وكانت اشجار المشمش قد انتفخت بالصيف . وفي حزيران ، ظهر الإجاص الباكوري مع الحصاد الكبير . وكانت الينابيع قد بدأت تشح والحرارة تتفاقم . ولكن دم الارض ، الناضب في هذا الجانب ، كان يُزهر جانب آخر في القطن ويسكّر أوائل الاعناب . وهبت ريح عنيفة لاهبة جففت الاراضي وأشعلت حرائق في كل مكان تقريباً . ثم فجأة ، انقلبت السنة . وبسرعة انتهى القطاف . وكنس المطر الارض بفيضانات كبيرة من أيلول حتى تشرين الثاني . ومعها ، وما كادت اعمال الصيف تنتهي حتى بدأت حقول القمح وأوان البذار الاولى ، بينما كانت الينابيع تتضخم فجأة وتتفجر سيولاً . وفي آخر السنة كان القمح قد بدأ ينبت في بعض الاراضي ، بينما لم تكد أراض أخرى تنتهي من استقبال الحراثة . وبعد ذلك يقليل ، غدت شجرات اللوز من جديد بيضاء في السماء الثلجة الزرقاء . وتتابع السنة الجديدة في الارض والسماء . وتُحرس الدخان ، وحرثت الكرمة وكبرتت ، وُطعمت الاشجار . وفي الشهر نفسه ، نضج الزعرور ، ومن جديد ، أقبل أوان حصاد الكلأ ، وحصاد الصيف . وفي منتصف السنة ، كانت الثمار التارّة التي تلتصق بالاصابع تقطي الطاومات : التين ، الدراق

والاجاص التي تؤكل بشرافة بين دراسين . وفي موسم القطاف التالي ، اكتست السماء ، فمرت أسراب سوداء صامتة من الزرازير والسمن ، قادمة من الشمال . كان مرورها يعني ان الزيتون قد بدأ ينضج . وحوش فعلا بعد فترة من مرورها ، وفي الأرض اللزجة نبت القمح مرة ثانية . ومرت رفوف ضخمة من الغيوم قادمة هي أيضاً من الشمال على البحر وعلى الأرض ، فمسحت عن الماء زبده وتركته نقياً مثلجاً تحت سماء من البلور . ولعدة أيام ، حصل في المساء برق بعيد صامت . وبدأت أيام البرد الأولى .

في هذا التاريخ تقريباً ، لزم مرسو الفراش لأول مرة . فقد حبسته نوبات داء الجنب وألزمته غرفته شهراً . وعندما شفي ، كانت أواخر منحدرات شتوة قد اكتست بالاشجار المزهرة التي كانت تنحدر نحو البحر . لم يسبق قط لأي ربيع ان وجده حساساً إلى هذا الحد ، وأول ليلة من نقاهته ، مشى طويلاً عبر الأراضي حتى الرابية المليئة بالحرائب حيث كانت ترقد تيبازا . وفي صمت مسكون بأصوات السماء الحريرية ، كان الليل اشبه بجليب على العالم . وكان مرسو يمشي على الشاطيء الصخري ، مشعباً بتأمل رزين لهذا الليل . وكان البحر ، دونه قليلاً ، يهدر يهدوء . وكان يرى مليئاً بالقمر والمخل ، طرياً ، أملس كأنه وحش . في هذه الساعة التي كانت تبدو له فيها حياته بعيدة جداً ، بدا المرسو وهو وحيد ، غير مكترث بشيء ولا بنفسه ، انه كان قد بلغ أخيراً ما كان يبحث عنه ، وان هذا السلام الذي كان يملأه كان قد ولد من استسلامه الصبور الذي كان قد تابعه وبلغه ، بمساعدة هذا العالم الحار الذي كان ينكره بلا غضب . كان يمشي بخفة ، وكان وقع خطاه يبدو له غريباً ، مألوفاً بلا شك ، ولكن كحفيف الحيوانات بين ادغسال الزعرور ، وابقاعات البحر أو خفقات الليل في اعماق السماء . وكان كذلك يشعر بحسده ، ولكن بالاحساس الخارجي ذاته الذي يحس به النفحة الحارة لهذا الليل الربيعي ورائحة الملح والعفن التي كانت تصعد من البحر . كانت جولاته في العالم ، واصرارها

على تطلب السعادة ، وجرح زغرو المريع ، المليء بالسخن والعظم ، والساعات العذبة المحترسة في « البيت امام العالم » ، وامراته ، وآماله وأهنته ، كل ذلك كان مائلا امامه ، ولكن كقصة مفضلة بين جميع القصص ، من غير سب مقبول ، غريبة ومألوفة بطريقة خفية في آن واحد ، كتاب أثير يدغدغ ويؤكد أعمتى ما في القلب ، ولكنه كتاب كتبه آخر . ولأول مرة ، لم يكن يحس في نفسه أية حقيقة أخرى غير حقيقة هوس الغامرة ، رغبة نسغ ، غريزة ذكية ودية لقرابة العالم .

وبلا غضب ولا حسد ، لم يكن يعرف ندماً . كان جالساً على صخرة يحس وجعها المجدور تحت أصابعه ، وهو ينظر إلى البحر ينتفخ بصمت تحت ضوء القمر . كان يفكر بوجه لوسيان الذي كان قد داعبه وبدفء ثقته . وعلى سطح الماء السوي ، كان القمر ، الشبيه بالزيت ، يضع ابتسامات طويلة تائهة . ولا بد أن الماء كان دافئاً كفم ، رخياً مستعداً للانغمار تحت جسم انسان . وإذ ذلك ، أحس مرسو وهو ما يزال جالساً ، كم كانت السعادة قريبة من الدموع ، مغمورة كلياً في هذا الهوس الصامت الذي يُنسج فيه الأمل واليأس ومزيجين من حياة انسان . كان مرسو واعياً ومع ذلك غريباً ، منهوشاً بالهوس ومتجرداً ، فكان يدرك ان حياته نفسها ومصيره كانا ينتهيان هنا ، وان كل جهده سيبدل بعد الآن ليتدبر أمره مع هذه السعادة وليواجه حقيقتها المرعبة .

كان ينبغي له أن يغطس في البحر الحار ، وان يتيه ليجد نفسه ثانية ، وان يسبح في القمر والدفء لكي يصمت ما كان في داخله باقياً من الماضي ولكي يولد لحن سعادته العميق . وتمرّى ، وتزل بضعة صخور ودخل في البحر . كان حاراً كجسد ، وكان ينزلق على طول ذراعه ، ويلتصق بساقيه بضمة لا تحتجز وهي ذلك مع حاضرة أبدأ . وكان هو يسبح بانتظام ويحس بعضلات ظهره توقع حركته . وكلما رفع ذراعه ، كان يرمي على البحر الشاسع

قطرات فضة متراشقة ، ممثلة ، أمام السماء الخرساء الحية ، البذور الرائعة لحصاد من السعادة . ثم كانت الذراع تغطس من جديد ، كسكة حرائة قوية ، فتفلق المياه وتشقها الى نصفين لكي تتخذ فيها سناً جديداً واملاً أكثر شباباً . وخلفه كان ينبعث من تحبّطات قدميه فوران زبد، وفي الوقت نفسه صوت ماء هادر ، صاف صفاء غريباً في الوحدة وصمت الليل . ولإحساسه بإيقاعه وقوته ، كان نوع من الحماسة يكتسحه ، فيتقدم بمزيد من السرعة ، وفيما بعد وجد نفسه بعيداً عن الشواطئ ، وحيداً في قلب الليل والعالم . وفكر فجأة بالأعماق التي تمتد تحت قدميه فأوقف حركته . كل ما قد كان تحته كان يجذبه كأنه وجه عالم مجهول ، امتداد هذا الليل الذي كان يعيده لذاته ، وقلب حياة من ماء وملح لم تكتشف بعد . وراوده إغراء أبعد في الحال ، وكان متعباً جسدياً تعباً رائماً ، فرجع نحو الضفة . وفي تلك اللحظة دخل فجأة في تيار مثلج قاضط الى التوقف ، مصطك الاسنان ، مضطرب الحركات . وهذه المفاجأة التي واجهه بها البحر تركته دهشاً مذهولاً ، وكان ذلك الثلج ينفذ إلى اطرافه فيحرقه كحطب إله بجاس صاف ومهوس كان يخلفه بلا قوة . وعاد بمشقة أكبر ، وعلى الضفة ، بمواجهة السماء والبحر ، ارتدى ملابس وأسنانه تصطك وهو يضحك من السعادة .

حين عاد إلى منزله ، تملكه انزعاج . ومن المر الضيق الذي كان يصعد من البحر نحو دارته ، كان يستطيع أن يرى الرعن الصخري الذي كان يقابله ، وجذوع الأعمدة والحرائب الملساء . وفجأة ، انقلب المشهد ووجد نفسه مستنداً إلى صخرة ، نصف منقلب على دغل من شجر الزعرور كانت أوراقه المسحوقة تترك رائحتها تفوح . وعاد بمشقة الى الدارة . كان جسده الذي كان قد حمله الساعة إلى آخر حدود الفرح يُغرقه الآن في ضيق كان يأخذ بأحشائه ويغلق منه العينين . وصنع لنفسه شايًا . ولكنه كان قد أخذ إناء قدرًا ، ليسخن الماء ، فكان الشاي مدهناً حتى الغثيان . ومع ذلك فقد شربه قبل أن يذهب لينام .

وحين خلع حذاه ، لاحظ على يديه اللتين كان الدم قد انسحب منها ، ان اظافره وردية جداً، ومتسعة ومخنية حتى انها تغطي اطراف الاصابع . انه لم يسبق له قط ان كانت له مثل هذه الاظافر التي كانت تضيي على يده مظهرأ من الالتواء والانحراف . وكان يحس صدره محصورأ في مازمة . وسعل وبصق عدة مرات بطريقة طبيعية بالرغم من ان فمه احتفظ بمذاق دم .

وفي السرير ، انتابته ارتجافات طويلة ، كان يحسها تصعد من أقصى الجسد وتلتقي عند الكتفين كخيطي ماء مثلج ، بينما كانت اسنانه تصطك من فوق الشراشف التي كانت تبدو له مبتلة . وكان يخيل اليه ان البيت واسع والاصوات المألوفة التي كان يسمها كانت تتسع حتى اللانهاية كما لو انها لم تكن تلتقى جدارأ يضع جداً لأرتجاعاتها . كان يسمع البحر كاندفاق ماء وحصى ، وخققان الليل وراء زجاجه الكبير ، ونباح الكلاب في المزارع البعيدة . وأحس بالحرارة ، فألقى بالاغطية ، ثم أحس بالبرد ، فأعادها . وفي هذا التأرجح بين عذابين ، وذلك الاسترخاء وهذا القلق الذي كان ينتزعه من النوم ، وعى فجأة انه كان مريضاً . وعراه ضيق إذ فكر أنه قد يموت في هذه الحالة من اللاوعي ، ومن غير ان يستطيع النظر أمامه . وفي القرية قُرع جرس الكنيسة ، من غير ان يستطيع معرفة عدد الدقات . لم يكن يريد أن يموت مريض . بالنسبة له على الأقل ، لم يكن يريد ان يكون المرض ما هو غالباً ، انحالاً وانتقالاً نحو الموت . إن ما كان يوده بعد بلاوعي ، انما هو لقاء حياته ، وهي مليئة دماً وصحة ، مع الموت ، وليس مواجهة الموت مع ما كان الآن أشبه بالموت .

ونهض ، فجذب يجهد مقعدأ نحو النافذة وجلس وهو يغطي نفسه . وخلف الستائر الخفيفة ، في الأمكنة التي لم تكن الثنايا تكثف فيها القماش ، كان يرى نجومأ . تنفس طويلاً وشد على ذراعي مقعده ليهديء يديه اللتين كانتا ترتجفان . كان يريد أن يستعيد صفاءه .

وكان يفكر : « هذا ممكن » . وفي الوقت نفسه ، كان يفكر بأن الغاز كان ما يزال مشتعلًا في المطبخ فكان يردد : « هذا ممكن » . كان الصفاء هو أيضاً صبراً طويلاً ، كل شيء كان يمكن اكتسابه والحصول عليه وكان يضرب بقبضته ذراعي مقعده . ان المرء لا يولد قوياً ، أو ضعيفاً أو مقطوعاً ، بل هو يصبح قوياً ، ويصبح واعياً . ان المصير ليس في الانسان بل حول الانسان . ولاحظ إذ ذاك انه كان يبكي . كان ضعف غريب ، نوع من الجبن منبثق من المرض ، يعيده إلى الطفولة وإلى دموعه . فكان يحس برداً في يديه وقرفاً كبيراً في القلب . وكان يفكر بأظافره ، وتحته ترقوته دحرج غدداً بدت له ضخمة . وفي الخارج كان كل ذلك الجمال المنتشر على العالم .

لم يكن يريد أن يغادر حسه للحياة وحرصه عليها . وكان يفكر بتلك الامسيات على مدينة الجزائر حيث يصعد في السماء الخضراء ضجيج الرجال وهم يخرجون من المصانع على نداء الصفارات . بين مذاق الابستنت ، والزهور البرية في الخرائب وعزلة البيوت الصغيرة المحاطة بالسرو في « الساحل » ، كانت تحاك صورة لحياة كان الجمال والسعادة ، ينتزعان فيها من اليأس وجهه ، وكان باتريس يجد فيها نوعاً من الأبدية الهاربة . لم يكن يرغب في ان يترك هذا ولا أن تكون هذه الصورة قادرة على الاستمرار من دونه . وامتلاً بالتمرد والشفقة ، فرأى إذ ذاك وجه زغرو متجهاً نحو النافذة . وسمل طويلاً . وكان يتنفس بشقة . وكان يحنق في ثياب الليل . وكان يحس بالبرد ، وكان يحس بالحر . كان يحنق بغضب كبير عكر ، وكانت قبضته مضمومتين . ودمه كله يخفق خفقات كبيرة تحته جمعته . كان نظره فارغاً ، وكان ينتظر الرعشة الجديدة التي ستغمره من جديد في الحمى العمياء . وجاءت الرعشة ، فردته إلى عالم رطب مغلق أغمضت فيه عيناه فأسكتت تمرد الحيوان ، الحريص على عطشه وجوعه . ولكن قبل أن ينام أتبع له أن يرى الليل يبيض قليلاً خلف الستائر ، وان يسمع ، مع الفجر ويقظة العالم ، ما يشبه نداء كبيراً من الحنان والأمل كان يبرر بلا شك

رعبه من الموت ، ولكنه كان في الوقت نفسه يطمئنه بأنه سيجد مبرراً للموت في ما سبق ان كان مبرره الكامل للحياة .  
عندما استيقظ ، كان النهار قد قطع شوطاً ، وكان شعب كامل من العصافير والحشرات يغني في الحر . وفكر بأن لوسيان كان لا بد ان تأتي اليوم ذاته ، وكان محطماً فعاد بمشقة الى سريره . وكان مذاق الحمى في فمه وذلك الضعف الذي يحيل الاشياء في عيني المريض أكثر صلابة والكائنات أكثر اكراهاً .  
واستدعى برنار فحضر ، منهمكاً على عاداته وصموتاً ، وفحص نبضه ، وخلع نظارتيه ليمسح زجاجها . وقال : « حالة سيئة » . ثم حقنه حقنتين . عند الثانية ، بالرغم من ان مرسو كان قليل الرهافة ، فقد اغمي عليه . وعندما استعاد وعيه ، كان برنار يمسك قبضته بيد وساعته باليد الأخرى ، وكان يتأمل التقدم المهتز لعقرب الثواني .

قال برنار :

— انت ترى ، إغماء لربع ساعة . إن قلبك يستسلم . وقد تموت ، في اغماء جديدة .

أغمض مرسو عينيه . كان منهوكةً ، شفتاه بيضاوان وجافتان ، وتنفسه يصفر .

قال : — برنار .

— نعم .

— لا أريد ان أموت باغماء . انني بحاجة إلى ان أرى بصفاء . انت تفهمني .

قال برنار :

— نعم .

وأعطاه عدة جرعات : « اذا أحسست بالضعف ، فأكسرها وابلعها . انه « ادرينالين » .

والتقى برنار ، وهو خارج ، لوسيان التي كانت قادمة .

– إنك على عادتك فتّانة .

– هل بافريس مريض ؟

– نعم .

– وهل وضعه خطير ؟

قال برنار :

– لا ، إنه بحالة جيدة جداً . ( وقبل ان يذهب أضاف ) في الواقع ،  
أنصحك أن تتركه وحيداً قدر الامكان .

قالت لوسيان :

– آه .. لا أهمية لذلك إذن .

طوال اليوم كله ، كان مرسو يحنق . وأحس مرتين بالفراغ البارد العنيد  
يحتذبه الى اغشاء جديدة ، ومرقن سحبه الادرينالين من هذه القطعة السائلة .  
وطوال النهار ، نظرت عيناه الداكنتان إلى القرية الرائعة . حوالي الساعة  
الرابعة ، بزغ زورق كبير أحمر على البحر وتضخم شيئاً فشيئاً وهو يرشح شمساً  
وماء وقشوراً .

كان بيريز واقفاً يحذف بانتظام . وجاء الليل اذ ذاك بسرعة . واغمض  
مرسو عينيه ، ولأول مرة منذ الليلة الماضية ، ابتسم . كان قد لزم الصمت .  
وكانت لوسيان في غرفته منذ لحظة ، قلقة بغموض ، فأنكبت عليه وقبلته .  
قال مرسو :

– اجلسي . تستطيعين البقاء .

قالت لوسيان :

– لا تتكلم . ان هذا يتعبك .

وأتى برنار ، فحقن حقناً وذهب . وكانت غيوم كبيرة حمراء تمر بهدوء في  
السماء .

قال مرسو يجهد ، وهو غاطس في مخدته وعيناه شاخصتان الى السماء :  
– كانت امي تقول لي ان ارواح الأموات هي التي كانت تصعد الى السماء ،



و كنت منذهلا أن تكون لي روح حمراء . والآن أدرك ان ذلك في أغلب الاحيان انما هو وعد ريح . ولكنه كذلك رائع .  
وبدا الليل ، كانت الصور تتقدم . حيوانات كبيرة خرافية كانت تهز رأسها فوق المناظر الصحرواية . وأبعدها مرسو بلطف من اعماق حممها . كان يفسح المجال فقط لوجه زغرو بأخوته الدامية . ان الذي سبق ان أعطى الموت سيموت . وكما كان الامر بالنسبة لزغرو ، كانت النظرة الواعية التي كان يلقيها على حياته نظرة رجل . الى الآن كان قد عاش . والآن يمكن للناس ان يتحدثوا عن حياته . ومن هذا الانطلاق الكبير الجامح الذي كان قد حمله الى الامام ، ومن الشعر الهارب خالق الحياة ، لم يكن يبقى الآن سوى الحقيقة التي لا تجاعيد فيها والتي هي بقبض الشعر .

ومن جميع الاشخاص الذين كان قد حملهم في ذاته ككل انسان في بداية هذه الحياة ، من هؤلاء الكائنات التي كانت تمزج جذورها من غير أن تحتلط ، كان يدرك الآن أيها قد كان: وهذا الاختيار الذي يخلقه القدر في الانسان كان قد حققه في الوعي والشجاعة . وهنا كانت تكمن سعادته كلها في ان يعيش وان يموت . هذا الموت الذي كان قد نظر اليه بهلع وحشي ، كان يدرك ان الخوف منه كان يعني الخوف من الحياة . كان الخوف من الموت يبرر تعلقاً لا حدود له بما هو حي في الانسان . وجميع الذين لم يسبق لهم ان صفوا الاعمال الحاسمة ليرفعوا حياتهم ، جميع أولئك كانوا يخافون المعجز ويمجدونه ، أولئك جميعاً كانوا يخافون الموت ، بسبب العقوبة التي كان يجعلها الى حياة لم يسبق لهم ان امتزجوا بها . لم يكونوا قط عاشوا بما فيه الكفاية ، لكونهم لم يعيشوا قط . وقد كان الموت أشبه بحركة تحرم من الماء الى الابد المسافر الذي كان قد بحث عبثاً لينقع ظمأه . اما بالنسبة للآخرين ، فقد كان الموت الحركة المقدرة الحنون التي تمحو وتنفي ، باسمه للعرفان مثل بسمتها للتمرد .

وأمضى يوماً وليلة جالساً على سريره ، ذراعاه على طاولة السرير ، ورأسه بين ذراعيه . ولم يكن يستطيع ان يتنفس وهو مضطجع . والى جانبه ، كانت

لوسيان جالسة تراقبه من غير ان تنبس بكلمة، وكان مرسو ينظر اليها احياناً.  
وكان يفكر بأن أول رجل سيأخذ قامتها من بعده ، سيجعلها ترتخي .

انها ستمنح نفسها وهي متجمعة كلياً في نهدها كما منحت نفسها له من قبل ،  
وسيستمر العالم في دفء شفتيها المنفرجتين . وكان احياناً يرفع الرأس وينظر  
عبر النافذة . لم يكن حليقاً . وكانت عيناه المهرتان عند جوانبها ، الغائرتان  
بعمق ، قدم فقداً ألقها الداكن وكانت وجنتاه الجوفتان الشاحبتان تحت  
الزغب المزرق تبدلانه تماماً .

وكانت نظرتة ، نظرة القط المريض ، تستقر على الزجاج . كان يتنفس  
ويلتفت نحو لوسيان . عندها كان يبتسم ، وفي هذا الوجه الذي كان يهرب  
وينهار في كل جهة ، كانت تلك الابتسامة القاسية الواضحة تخلق قوة جديدة  
ورصانة جذلي .

كانت لوسيان تقول بصوتها المنطفىء : « هل تتحسن ؟ »

فيقول : « نعم »

وكان يرجع من بعدها الى ليل ذراعيه .

وعند تخوم قوته وصموده ، كان يلتقي لأول مرة ومن الداخل ، رولان  
زغرو الذي كانت ابتسامته تفيظه كثيراً في بادىء الامر . وكان تنفسه القصير  
المتدافع يترك على رخام طاولة الليل بخاراً رطباً كان يرد له حرارته . وفي  
هذا الدفء غير الرديء الذي كان يصعد نحوه ، كان يحس إحساساً أعمق  
بالطرف الثلج لاصابعه وقدميه . ان هذا بالذات كان يكشف حياة ، وفي  
هذه الرحلة من البرد إلى الحر ، كان يستعيد الحواس الذي كان قد تملك زغرو ،  
شاكراً « الحياة التي تسمح له بان يحترق بعد » . وكان يحس نفسه مأخوذاً  
بجب عنيف أخوي لهذا الرجل الذي كان قد شعر أنه بعيد جداً عنه ، وكان  
يدرك انه ، بقتله ، كان قد عقد معه عرساً كان يشده به الى الأبد . وتلك

المسيرة الثقيلة للدموع التي كانت في نفسه كمذاق مختلط للحياة والموت ، كان يدرك انها كانت مشتركة بينها . وفي جمود زغرو بالذات امام الموت ، كان يجد من جديد الصورة الخفية القاسية لحياته الخاصة . وكانت الحمى تساعده في ذلك ، ومعها ذلك اليقين المحمس الذي كان يملكه ليحفظ بوعيه حتى النهاية وليموت وعيناه مفتوحتان . لقد كانت عينا زغرو هو أيضاً مفتوحتين في ذلك اليوم ، وكانت دموع تسيل منها ، ولكنه كان آخر ضعف لرجل لم يكن له نصيب في حياته . وما كان باتريس يخشى هذا الضعف . ففي خفقات دمه المحموم الذي كان يتوقف دائماً على بعد بضعة سنتمترات من حدود جسده ، كان ما يزال يدرك ان هذا الضعف لن يكون ضعفه . ذلك انه ، هو ، كان قد قام بدوره ، وكان قد أتم واجب الانسان الوحيد الذي يتلخص في أن يكون سعيداً . ليس لمدة طويلة بلا شك . ولكن لأشأن للوقت بذلك ، انه لا يمكن أن يكون إلا عقبة ، وهو آنذاك ليس شيئاً . كان قد هدم العقبة ، وهذا الأخ الداخلي الذي كان قد ولدته في ذاته ، سيان ان يكون سنتين أو عشرين .

نهضت لوسيان ، وغطت من جديد كتفي مرسو اللتين كان الغطاء قد انزلت عنهما . وارتعش تحت هذه الحركة . منذ اليوم الذي كان فيه قد عطس في الساحة الصغيرة امام دارة زغرو ، حتى هذه الساعة ، كان جسده قد خدمه باخلاص وكان قد فتحه على العالم . ولكنه كان في الوقت نفسه ، يتابع حياة خاصة منفصلة من الانسان الذي كان يمثله . كان قد تابع خلال هذه السنوات تحللاً بطيئاً . اما الآن ، فقد أتم الحناءته ووقف مستعداً ان يترك مرسو وان يعيده الى العالم . وفي هذه الرعدة الفجائية التي كان مرسو يعيها ، كان يسجل مرة أخرى هذا التواطؤ الذي سبق ان منحها كثيراً من المرات . وبهذه الصفة فقط ، كان مرسو يعتبر هذه الرعدة فرحة . كان هذا ، في وعيه ، ما كان يجب ، بلا تضليل ، وبلا جبن - وحيداً امام نفسه - وجهاً لوجه مع جسده - وعيناه مفتوحتان على الموت . كان الامر يتعلق بقضية بين

رجال . لا شيء ، لا حب ولا ديكور ، بل صحراء لا نهائية من الوحدة  
والسعادة كان مرسو يلعب فيها آخر اوراقه . كان يحس نفسه يضعف . وقد  
تشقق جرعة هواء ، وبهذه الحركة هدرت جميع اراغن صدره . كان يحس  
ربلتي ساقيه باردتين جداً ويديه عديمتي الاحساس . وكان النهار يطلع .  
وامتلاً النهار الذي بزغ بالعصافير والندواة . وارتفعت الشمس بسرعة ،  
وبقفزة وصلت فوق الافق . واكتست الارض بالذهب والحرارة . وفي الصباح  
كانت السماء والبحر تتلاطخان بالاضواء الزرقاء والصفراء ، ببقع كبيرة واثبة .  
وكانت ريح خفيفة قد هبت ، ومن النافذة كان هواء يحمل مذاق الملح يأتي  
ليرطب يدي مرسو . وعند الظهر توقفت الريح ، وتفتتح النهار كشمرة ناضجة ،  
وعلى امتداد العالم كله ، سال عصيراً دافئاً خانقاً ، وسط موسيقى زيزان  
مفاجئة . وتغطى البحر بهذا العصير المذهب كما يتغطى بزيت ، وأعاد الى الارض  
المسحوق بالشمس هبة حارة فتحت وصدت عطوراً من الابستت وندى البحر  
والحجارة الحارة . ومن سريره ، لاحظ مرسو هذه الصدمة وهذه المنحة ، وفتح  
عينيه على البحر الشاسع المنحني ، المتوهج المأهول بابتسامات آلهته . ولاحظ  
فجأة انه قد كان جالساً على سريره وان وجه لوسيان كان قريباً جداً من  
وجهه . وكان يصعد في داخله بهدوء ، ابتداء من البطن ، ما يشبه حصاة كانت  
تسير حتى حلقه . وكان يتنفس بسرعة متزايدة . ونظر الى لوسيان فأبتسم من  
غير تشنج . وكانت هذه الابتسامة تصدر من الداخل . وانقلب على سريره  
فأحس بالصعود البطيء في داخله . ونظر الى شفتي لوسيان المكتنزتين ، ومن  
خلفها ، ابتسامة الأرض . كان ينظر اليها النظرة نفسها ، بالرغبة ذاتها .  
وفكر : « بعد دقيقة ، بعد ثانية » . وتوقف الصعود ، وحجراً بين  
الاحجار ، عاد في فرحة قلبه الى حقيقة العوالم الجامدة .

تمت

## عن الرواية

كان نشر « دفاتر البير كامو » قد قرّرتَه عائلة الكاتب ونأشروه ، تلبية لرغبة العديد من الجامعيين والطلبة ، وبوجه عام جميع الذين يهتمون بمؤلفاته وتفكيره .

إنهم لا يفتتحون هذه المنشورات من دون تحفظات : كان البير كامو قاسياً على نفسه ، وكان لا ينشر شيئاً باستخفاف ، فلماذا إذن تُعرض للجمهور رواية متروكة ، ومحاضرات ، ومقالات ، وملفات وحق مسودات لم يكن هو نفسه قد احتفظ بها كـ « كتابات معاصرة » ؟

بكل بساطة ، لأن المرء حين يحب كاتباً أو يدرسه بعمق ، يتمنى غالباً ان يعرف كل شيء عنه . واولئك الذين يملكون كتابات كامو غير المطبوعة يعتبرون تعسفاً مسرفاً عدم تلبية هذه الرغبة المشروعة ورفض السماح بقراءة « الموت السعيد » أو « يوميات سفر » مثلاً لأولئك الذين يرغبون في ذلك .

إن الجامعيين الذين قادتهم دراستهم احياناً في حياة كامو ، ليراجعوا كتابات صباه أو كتاباته التي جاءت بعد ذلك ، ولكنها غير معروفة إلا قليلاً أو التي لم تكن قد نشرت بعد ، يعتبرون ان صورة الكاتب لا يمكن إلا ان تتلون وتقتني بقراءة تلك الكتابات .

## تكوُّن « الموت السعيد »

بقلم هجان ساروكي

لن نلحّ في هذه المقدمة على المعطيات السيرية . فأهمّ ما ينبغي معرفته سبق ان قدّمه روجيه كيو في جزئيّ « البلياد » . ان « الموت السعيد » تستغلّ ذكريات الحيّ الفقير ، في « بلكور » حيث قضى البير كامو طفولته ، وعمله في السمسة البحرية ، ورحلته الى أوروبا الوسطى ، صيف عام ١٩٣٦ ، واسفاره في إيطاليا عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ وإقامته في المصح ، وحياته في بيت فيشو أو « البيت أمام العالم » ، في أعالي مدينة الجزائر ، حيث استقر في تشرين الثاني ١٩٣٦ . ونقرأ فيها أيضاً بعض الحوادث من حياته الغرامية . فان سنتي علاقاته الزوجية وطلاقه من « سيمون هيا » الذي تم في سزابورج بعد مناقشة عاصفة ، كل ذلك قد صور هنا وهناك شخصية نسائية ، ليس من السهل تحقيق هويتها ، تلعب هنا دوراً رئيسياً . وتبقى هناك نقاط استفهام ربما محتها ذات يوم دراسة منقبة : من كانت لوسيان ؟ ورولان زغرو ؟ والدكتور برنارد ؟ الخ ...

ويبدو هنا ان إقامة تطابق دقيق بين رواية وحياتة ما ، أقل فائدة من رسم تخطيطي تكوُّن أدبي .

ان أول تنويه دقيق ، « في الدفاتر » عما سيصبح « الموت السعيد » هو

تصميم للقسم الثاني الذي لا يمكن إلا ان يكون لاحقاً للرحلة إلى أوروبا الوسطى .  
والمخططات الاخيرة « الموت السعيد » يرجع تاريخها الى عام ١٩٣٨ . واننا نجد  
ايضاً اسم مرسو في كانون الثاني ١٩٣٩ ، ولكن « الغريب » هو ما يهم كالمو  
منذ ذلك الحين . وهكذا فإن « الموت السعيد » كانها قد صممت وحررت من  
عام ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨ . انها معاصرة لأبحاث « الظهر والوجه » في شكلها  
الأول ، وأبحاث « الاعراس » في تحولاتها الأخيرة . وتليها الكتابة الأولى  
« كالفولا » .

ولكي تتكوّن لدينا احسن فكرة ممكنة عن الطريقة التي أعدت بها  
هذه الرواية ، يمكننا ان نتفحص أولاً الشكل النهائي للرواية . « الموت السعيد »  
تقسم الى قسمين ، كل واحد منها يحتوي على خمسة فصول : « الموت الطبيعي »  
ثم « الموت الواعي » ولكن على امتداد مئة واربعين صفحة مطبوعة على الآلة  
الكتابة ، لا يحتل القسم الأول سوى ٤٩ صفحة ، اكثر من الثلث بقليل .  
وعقدة « الموت الطبيعي » هي قتل رولان زغرو . فالبطل مرسو يقتله في  
الفصل الأول ، ويستولي على ماله ، ( ويصاب بالبرد ) وهو عائداً الى بيته .  
والفصول التالية هي عودة الى الوراء : عن حياة مرسو العادية ( الفصل الثاني )  
وعلاقاته بمارت وغيرته الجنسية ( الفصل الثالث ) وحديثه الطويل مع زغرو  
( الفصل الرابع ) واخيراً حوار كان قد اجراه مع كردونا البراميلى الذي  
تروى قصته البائسة ( الفصل الخامس ) . ولكي نوجز فيما نعطي الخيط الهادي  
نقول : إن باتريس مرسو عامل بسيط ذو حياة معدمة ، له جار براميلى ذو  
حياة اكثر اعداماً ، وعشيق فتاة كان لها العاجز رولان زغرو العشيق الأول ،  
فيمقد بفضلها ، علاقات معه ، ويعرف ، وهو يتحدث ، كيف كوّن ثروته ،  
ويستغل هذا البوح ، فيقتله . ويقوم برحلة وهو منهار الصحة ولكن مليء  
الجيب .

والفصول الخمسة « للموت الواعي » تمثل إقامة مرسو في براغ ( الفصل الأول ) ومتابعة سفره وعودته ، بطريق جنوى ، الى مدينة الجزائر ( الفصل الثاني ) وحياته في « البيت أمام العالم » ( الفصل الثالث ) ورحيله الى جبل شنوة حيث استقر في بيت بمواجهة البحر ( الفصل الرابع ) واخيراً أصابته بداء الجنب وموته ( الفصل الخامس ) . ولكي نعطي الخط الهادي نقول : إن مرسو ، في براغ ، يحس السعادة تفلت منه . انه يسترد مذاقها وهو يعود نحو الشمس . وإذ يعود الى مدينة الجزائر ، يحاول تجربتين متتابعتين لحياة سعيدة : اولاً في حياة مشتركة مع ثلاث صديقات في « البيت أمام العالم » ، ثم في عزلة زهدية ، مخففة بزيارات أمراءه لوسيان او بزيارات صديقاته الثلاث في جبل شنوة . ولقد اكتسب السعادة واحتفظ بها حتى في موته وهو يتذكر زغرو .

هذا الموجز السريع للرواية يوضح الموضوع الرئيسي : كيف يكون الموت سعيداً ؟ اي كيف يمكن ان يعيش المرء سعيداً الى حد يصبح فيه الموت نفسه سعيداً .

من هذا المفهوم للعيش الهنيء والموت السعيد ، يبدو القسم الأول ظهر الرواية بسبب فقدان المال ، والوقت والسيطرة العاطفية . والقسم الثاني ، بفضل الاستقلال المالي ، وتنظيم الوقت وسلام القلب ، هو وجه الرواية : هذا هو ، باختصار ، محتوى ومعنى « الموت السعيد » في شكلها النهائي .

والتقسيم الى قسمين هو متأخر جداً . فجميع تخطيطات التصميم بلا استثناء ، حتى عام ١٩٣٨ ، تشكل ثلاثة أقسام ، والتلسات لا تقوم إلا على توزيع الفصول . لذلك فنحن لن ندهش باللاتمائل ( ٤٩ صفحة مقابل ٩١ ) الذي ينفجر في التصميم النهائي . والتقسيم المثلث ، كما يشهد في ذلك مشروع معنون « إعادة التوزيع » ، كان اكثر توازناً : فكل قسم كان بإمكانه ان يضم تقريباً عدداً مماثلاً من الصفحات .



والتصميم النهائي يبرز مفارقة راسخة . وليس الأمر كذلك في التخطيطات الأولى . ومع ذلك ، فإن المفارقة ، والتعاقب ، وبدوان ، على الفور ، النابض الجمالي للرواية ، كما انها نابض فلسفة كامو . وفي ملاحظة يقترح فيها رواية ست قصص :

قصة اللعب الباهر : ترف .

قصة الحبي الفقير . موت الأم .

قصة « البيت امام العالم »

قصة الغيرة الجنسية

قصة المحكوم بالموت .

قصة المهبوط نحو الشمس .

يكشف بترتيب العد بالذات ، همّ التعاقب هذا . فالقصص الست يمكن ان تتزاوج ثناء . ولكن حتى شهر آب من عام ١٩٣٧ يحاول ان يضاعف مفارقة القطبية بمفارقة الزمن : فبعض الفصول ستكتب بصيغة الحاضر ، وأخرى بصيغة الماضي . وحتى انه حاول ، في تصميم مفصل للقسم الثاني ، ان يجعل الأزمان تتابع وفق تشبيك صارم . وستنخل عن هذه الشكلية التي لا تسندها ضرورة داخلية . ولكن اترأ يظل منها في النص النهائي : فان الفصل المكرس « للبيت امام العالم » وهو استحضار سعادة نقية و متصلة ، ظل مكتوباً بصيغة الحاضر كما كان في المشروع الأولي .

والقصص الست التي ذكرت سابقا بشكل العدة الاولى التي منها ستألف الرواية شيئاً فشيئاً . وباستطاعتنا ان نعيد تخطيط تكوين الرواية بدءاً منها ومن تحويلاتها وتوزيعها .

فالتصاميم الاولى تؤكد على « قصة البيت امام العالم » الذي يحتل ، مسج قصة الغيرة الجنسية « القسم الثاني » . وهذا هو التصميم الأول الذي نقرأه في « الدفاتر » .

القسم الثاني :

أ - في الحاضر .

ب - في الماضي .

الفصل ١ .١ . البيت أمام العالم . تقديم .

» ب . ١ . كان يتذكر . ارتباطه بلوسيان .

» ١ - ٢ . البيت امام العالم . صباح .

» ب . ٢ . لوسيان تروي خياناتها .

» ١ - ٣ . البيت امام العالم . دعوة .

» ب . ٤ . غيره جنسية . سالز بورغ . براغ .

» ١ - ٤ . البيت امام العالم . الشمس .

» ب ٥ . الهرب . ( الرسالة ) مدينة الجزائر .

يأخذ بردا ، ويمرض .

» ١ - ٥ . ليل امام النجوم . كاترين .

فالقسم الأول مكرّس اذن ، كما نرى ذلك في تصميم لاحق في آب ١٩٣٧ ،  
للعب - المزدوج للحى المتألق الفقير : ما يعنيه اللعب المتألق ، فان خرافسة  
سيزيف ستكشفه فيما بعد في الثلاثية الدونجوانية ، المهزلة والانتصار . هذا  
اللعب يقاوم صروف حياة « الحى الفقير » . وإذ ذاك يرتسم تضاد مزدوج  
يفضحه مشروع في شهر آب نفسه ١٩٣٧ :

القسم الاول : حياته حتى الآن .

القسم الثاني : اللعبة .

القسم الثالث : التخلي عن التسويات والحقيقة في الطبيعة والحياة « حتى  
الآن » تتضمن الفقر ، ساعات العمل اليومي الثاني ، تفاهة العلاقات الاجتماعية ،

وبالاجمال نمط من الوجود الزائف و « اللعبة » التي تشير إليها « الدفاتر » إشارة مقتضبة جداً ، من المفروض أن تعني نوعاً من التأنق ، تقدماً على الحياة الفقيرة ، اندفاعاً في التلذذ بالذات ، ولكن زيفاً ايضاً. هذا التضاد في النص النهائي « للموت السعيد » يفقد من أهميته ، إذ يكون مخففاً في الحوار ومقتضياً في ترقى مرسوم. وبالمقابل فإن اكتساب الصدق والصفاء ، بجرعة هرب إلى العزلة والطبيعة ، يتمثل منذ التخطيطات الأولى ويبقى حتى آخر لحظة من الإعداد نهاية الرواية وغايتها.

ولكن يبدو أن « الموت السعيد » لا تنتهي في التخطيطات الأولى ، يموت البطل ، فنحن نقرأ في أحد التخطيطات هذه العبارة. « مذاق الموت والشمس » انه ليس سوى مذاق . وفي تصميم آخر ، نرى الموت مجابهاً ولكنه يقع في نهاية القسم الأول . الفصل الأخير « هبوط نحو الشمس والموت » ( انتحار موت طبيعي ) ملاحظة يجدر تسجيلها . الموت والشمس على صلة فيما بينهما . وحين تحمل السعادة ، التي هي اسطورة أخلاقية ، محل الشمس التي هي صورة حسية فإن خطوة حاسمة ستجاوز نحو المفهوم النهائي . وباستطاعتنا أن نؤرخ هذه الخطوة بشهر آب ١٩٣٧ وبالملاحظة التالية : الرواية : الانسان الذي فهم انه ، لكي يعيش ، عليه أن يكون غنياً ، والذي يمنح نفسه كلها لهذا الكسب للمال ، ينتج منه ، ويعيش ويموت سعيداً « ولأول مرة ، « في الدفاتر » نلتقي بموجز حقيقي « للموت السعيد » . وهنا ، ولأول مرة ، نجد فيها كلمة « رواية » .

الخيط الهادي من الآن فصاعداً واضح : سيكون تمثيلاً مقولاً للمثل : « المال لا يصنع السعادة » . السعادة بالمال . تصبح الموضوع الرئيسي ، كما يبدو ذلك بوضوح في مقدمة الملاحظة المؤرخة في ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٧ :

١٧ تشرين الثاني .

إرادة السعادة .

القسم الثالث تحقيق السعادة .

ولكن في هذه اللحظة تدخل فجأة شخصية زغرو الذي لا يمثل بعد سوى « العاجز » لينير أمام مرسوم مشكلة العلاقات بين المال والزمن ويكشف له حقيقة تعبير مثل آخر : الزمن هو المال . وهذه العبارة صحيحة أيضاً بشكلها المقلوب . المال ، هو وقت سيشكل مادة أساسية من فنه للعيش ، ويدل عليه المقطع الأخير من ملاحظة ١٧ تشرين الثاني :

« بالنسبة لرجل « كريم النسب » ، ان يكون سعيداً ، معناه ان يسترد مصير الجميع لا بإرادة الزهد ، ولكن بإرادة السعادة . لكي يكون المرء سعيداً - يلزمه وقت ، كثير من الوقت . السعادة هي أيضاً صبر طويل . والوقت انما تسرقه منا حاجتنا إلى المال . ان الوقت يُشترى . وكل شيء يُشترى . ان تكون غنياً ، هو أن تملك وقتاً لكي تكون سعيداً عندما تصبح جديراً بأن تكونه . »

إذن فإن مواد الرواية المختلفة تعود فتتجمع حسب مزدوجة الوقت الضائع والوقت المكتسب . وسيكون الوقت الضائع هو وقت الفقر ، والعمل ، والحياة التافهة : الفصل المكرس لحياة مرسوم سيحمل عنوان « قتل الوقت » وهو عنوات يتناسب والعلاقة مع مارت والمرحلة الى أوروبا الوسطى . وقتل زغرو سيضع حداً لهذه الاوديسة اليائسة للوقت الضائع . والوقت المكتسب سيكون وقت « البيت أمام العالم » ووقت الهرب في الطبيعة . ومن هنا ، على ورقة مخطوطة ، مشروع تصميم من ثلاثة أقسام يصبح الفصل الأساسي منها ، كل مرة ، مهدى للوقت . القسم الأول يحتوي على سبعة فصول ، ابتداء من « قتل

الوقت» تضم حياة مرسو في مغامراته في مدينة الجزائر حتى من عودته براغ ( اي الصفحات الممتدة من ١ الى ٧٥ من النص النهائي) كتب كامو: من « قتل الوقت » حتى .. كان نفسه مخلوقاً للسعادة . هذه الجملة الأخير توجد تقريباً كما هي في الصفحة ٧٥ من النص النهائي : « وأدرك أخيراً انه كان مخلوقاً للسعادة » .

والفصل الأول من القسم الثاني يجمّل آنذاك عنوان « ربح الوقت » - والحديث هنا يتناول «البيت أمام العالم .»

والفصل الأول من القسم الثالث ، يحمل عنوان الوقت الضائع ، وقت العمل ، الى الوقت المكتسب ، وقت البطالة بين فتيات « البيت أمام العالم » المزدهرات، الى الوقت المستعاد الذي هو وقت التوافق مع الطبيعة في العزلة والموت ، وهذا ما توجزه إشارة موجزة على المخطوطة من الصفحة الأخيرة : « الوقت» يقوم اولاً بكثير من الاشياء ثم يتخلى عن كل شيء. لا يقوم بشيء بشكل صارم . ويتبع سير الزمان وخاصة الفصول (اليوميات ١) إن الوقت الذي أصبح تحت شعار السعادة ، موضوعاً رئيسياً، يمنح الرواية هيكلها وإيقاعها . وتناوب الحاضر - الماضي ، في التخطيطات الأولى، لم يكن مستغرباً . والآن ، من الوقت المسحوق في الجزء الاول الى الصيرورة الترجيحية في الجزء الثالث ، ينبغي على تطوّر منحى الرواية ان يمر ويلتقي بالتعريفات الواهنة ذات التبررات الغنائية.

وهكذا نصل الى آخر تحول للرواية ، يقلّصها إلى قسمين . وهذا التقلّص يُفسر بسببين :

أولاً ارتباكات كامو إزاء موضوع الحوادث المشقية والعاطفية . فكان عليه ان يضغطها . وفي المشروع الآنف الذكر ، كان القسم الثاني ، بعد « كسب

الوقت « يعلن « لقاء لوسيان » ثم « رحيل كاترين » ولم يستطع ، أو يريد ، من هذه الزوايا، ان ينظم ما يكفيه من المواد ثم أصبحت حادثة زغرو أقل تماسكاً من ان تشكل نواة نظام . والحرب الى اوروبا الوسطى ، الذي كان في الأساس مرتبطاً بالغيرة الجنسية ، ضم إليها .

ولكن كما هو شديد الحرص على اقسامه الثلاثة : ومن هنا ، هذا التصميم أيضا . الأخير قبل « الضغط النهائي » .

#### القسم الأول :

- ١ - الحي الفقير ..
- ٢ - باتريس مرسو .
- ٣ - باتريس ومارت .
- ٤ - محذوف يكاد لا يقرأ : ب. وأصدقائه (٢)
- ٥ - باتريس وزغرو .

#### القسم الثاني :

- ١ - قتل زغرو .
- ٢ - هرب في القلق .
- ٣ - رجوع إلى السعادة .

#### القسم الثالث :

- ١ - النساء والشمس .
- ٢ - السعادة الخفية الحادة في تيبازا
- ٣ - الموت السعيد .

العنوان النهائي وجد ، ولكن مطبقاً على الفصل الأخير . وحادثة زغرو ليست بعد في مكانها الصحيح . ويبقى نقل القتل ، في الأخير ، باديء الأمر ، ثم في مطلع القسم الأول . وإذ ذلك أصبح القسم الثاني ، المقصور على الرحلة والعودة ، هزيلاً أكثر مما ينبغي . فدمج مع القسم الأخير ، وأقرت عنوان مشترك « الموت الواعي » الاندماج ، مستدعياً عنواناً موازياً « الموت الطبيعي » . وبالمقابل ، فالفصول التي كانت تحمل عنواناً خاصاً فقدته . فالعنوان الذي دعي « البيت أمام العالم » . ثم « النساء والشمس » ، ثم النساء والعالم » يلي من الآن فصاعداً من غير اخطار ، في الضوء المستهجن بصيغة الحاضر يلي حكاية العودة من براغ .

وهكذا أعيدت كتابة الرواية « بإعادة كتابة رواية » ألزم كالمو نفسه في حزيران عام ١٩٣٨ - وقد انجزت ، أو على الأقل ، عدلت ، حتى أصبحت « الموت السعيد » .

لماذا لم تنشر؟ لن نقف هنا إلا على اسباب أدبية بحتة . فالسيد م . كاسكس ، في دراسته عن « الغريب » ، يفترض ان هذه الرواية ، في المشروع المتخيل لكامو ، قد حلت محل « الموت السعيد » ويرى في شهر آب ١٩٣٧ ، اللحظة الحرجة التي انسل فيها خفية موضوع « الغريب » ، فيما كانت تتكوّن ، وهو يورد هذا النص :

« انسان بحث عن الحياة في المكان الذي توضع فيه عادة ( الزواج ، المركز ، الخ .. ) يلاحظ دفعة واحدة ، وهو يقرأ فهرست الدرجة<sup>(١)</sup> ، كم كان غريباً عن حياته ( الحياة كما هي مقبرة في فهرست الدرجة ) يعطي الصيغة الأولى للموضوع بالرغم من أنه يتعلق بالموت السعيد .

---

(١) الدرجة هي الكلمة التي وضعا قاموس «النهل » مقابل كلمة « المودة » Modee الاجنبية .

هذا الافتراض مقبول . ويمكن تقويته بملاحظة على القيمة الروائية للموت السعيد .

يبدو ان كامو ربما احس ، كلما كان يتقدم في تأليفها ، بالعيب المبطل لروايته الأولى وامكانية رواية اخرى .

انه عمل سيء التأليف ومكتوب بشكل مدهش في آن واحد ، كما يلاحظ ، روجيه كييو . وليس هناك افضل من هذا الكلام . ان صفات الكاتب الانيق العبارة تتفجر هنا ، ولكن ليس صفات الروائي . وكامو يحاول عبثاً ان ينظم فيها ويوحد عناصره المشتتة ، فاية علاقة توجد بين القتل المتخيل لزغرو وحكاية رحلة براغ الواقعية ؟ بين تصوير كردونا البائس وتذكر «البيت أمام العالم» ؟ ان التشتت في الثغرات يجعل تشتت الحوادث اخطر فلا نستطيع ان نجد له عذراً استناداً الى حسن مدروس للمفارقة : فالمؤثر ، والبشاشة ، والابتدال ، والجفاف التصوري ، والحرارة الحسية والغنائية الشمسية تتعاقب من غير ان تكون متطابقة . والحوادث اكثر عدداً مما ينبغي وحياناً تستعمل بتكرار نافل ، فبعد موت أم مرسو ، مثلاً ، فرض علينا موت أم كردونا . والأدوار النسائية خاصة ، وزعت توزيعاً سيئاً . ففي « ثلاثية » الحمقاوات « تبرز كاترين التي في الأساس - كما نظهر ذلك التصاميم الأولى ، كانت على علاقة مع مرسو . ولكن لوسيان كانت تستطيع ان تتصف بالميزة ذاتها . والتصاميم تنبيء بعلاقة فارة مع هذه وطوراً مع تلك . وقرأ فيها كذلك اسم امرأة تدعى لوسيل . ومارت ، كما نرى من ذلك بمقتضى احد التصحيحات ، تحمل محلها وتضطلع بقسم من دوري لوسيان وكاترين ، وتكون علاقة الزمن الضائع ، وكاترين علاقة الزمن المسترد . بالطبع ، ليس كامو بوضع مريح مع نسائه . إنهن يؤخرن ( تطور ) الرواية . إنهن يقدمن تجسيدا أدبيا للفشل : من يطعم بالكثير يفوته اليسير .

ونحس ، في النص النهائي ، جهده ليثبت اختصاصات كل منهن وليحتفظ



بأقارهن او ليدبر دخولهن الى المسرح . والنتيجة عاطلة رديئة: أكان بوسعهم ان ينتج اثرأ أفضل ، لو بذل مزيداً من العمل ؟

ان «الموت السعيد» ، بصفتها رواية، مدانة في أساسها . فصفا الرواية ، كما نقرأ من كتاب حديث عن النوع الروائي<sup>(١)</sup> «تتعلق بالتوتر الذي تتحديه الملاحظة الدقيقة وتصحيح او تعميق الواقعي بالمتخيل» ولا تشذ عن هذه القاعده اية رواية ، بينما في «الموت السعيد» تظل عناصر الملاحظة ، اي مقاطع السيرة الذاتية ، تظل متفككة . فذكريات الحمي الفقير ، والمصح ، والبيت امام العالم ، والرحلة الى أوروبا الوسطى ، والوجوه النسائية ، ليست بالمعنى الكيماوي معالجة لتندرج في « كل ، في عالم مغلق موحد » شبيه بعالم بروسن الذي يتخذ كتاب كامو « الانسان المتمرد » نموذجاً ، وتلك العناصر لا تشكل كلاً الا حين يستعيد لها الخيال الخلاق . بيد ان الخيال الخلاق ، في « الموت السعيد » لا يعمل إلا على مستوى الاسلوب . واختراع الحوادث والاشخاص فقير جدا : فقتل زغرو ، المستوحى من الوضع البشري او الجريمة «والمقاب» وشخصه نفسه ، لا يفضيان الى الحقيقة الروائية . وفي هذه الرواية المستحيلة ، تبقى القيمة فقط للمشاهد الحية ، التي تخرج من ورید « الظهر والوجه » . ولا تتميز بالشكل عن « السخرية » او « الحزن العميق » ، او الذكريات الغنائية التي تنتمي الى ذكريات «اعراس» . ان احسن ما في الرواية ليس روائياً .

هل احسن كامو ذلك بمثل هذا الوضوح ؟ انه لا يعترف بذلك في اي مكان . ولكنه اكثر من محتمل ان شعوره الباطني كفنان على الأقل كان ينبه الى خطئه ويقوده ، بلا علمه ، في طريق اخرى . ولكي نستعير من جيد تشبيهاً موحياً يورده فنان طبيعي ، لطبيعي ، فان في نكتة « الموت السعيد » يرقانة « الغريب » . وكانت «الموت السعيد» تتابع تكوتها الخداع ، وكان مؤلفها يتفنن في اعادة كتابتها واعادة احيائها في جميع اجزائها ، ولكن « الغريب » كمتطفلة موحى بها كانت تستمد افضل مكاسب هذا العمل الذي اعطى ، اخيراً ، بدلاً

(١) « الرواية حتى الثورة » تأليف هـ . كويله .

من روايه مزيفة ، قصة حقيقية .

واذن فانتنا سننهي هذه الدراسة باقامة توازن موجز بين « الموت السعيد » و« الغريب » . فقد دل روجيه كيبو ان « مرسو هو .. الأخ الأصغر لمرسو » . وأشار الى ان بعض الحوادث والاشخاص الثانويين هم مشتركون للنصين . ولكنه لاحظ الفروق واستطاع ان يكتب : « ان الحكيتين هما بلا ادنى علاقة . أو « الموت السعيد » ليست على الاطلاق رحم « الغريب » : انه كتاب آخر تماماً » .

ومع ذلك ، فبالرغم من فروق الحكيتين الحتمية وطريقة التأليف والغاية ، نستطيع ان نرى ، في « الموت السعيد » ، تجسيدا مسبقا « للغريب » حتى ولو سحبا من اللقطة معناها الحياوي ، رحما . ويكفي ، لنقنع بذلك ، ان نقارن بنية الكتابين : فالموت السعيد في آخر تحولها انتهت بقسمين . والمرور من التقسيم الثلاثي الى التقسيم الثنائي يعني بالنسبة لكامو ، المدول عن التقطيع الكلاسيكي ، حيث ترعى عملية التأليف المتناقضات لصالح جدلية اكثر ذاتية توضع فيها المتناقضات ضمن « دائرة صغيرة Court circiut » . من وجهة النظر هذه ، لا تبدو « الغريب » الا نسخة مكزوزة « للموت السعيد » فهي مؤلفة من قسمين ايضا ، ونفس عدد الفصول تقريبا ( ٥٦ مقابل ٥٥ ) . وتصمم القسم الأول ، في كلا الكتابين ، هو نفسه بطريقة محسوسة . مشاهد من الحياة التافهة ، ثم الحديث مع الرجل مالك الكلب ( سلمانو او كردونا ) ثم قتل زغرو أو العربي . هذا القتل يدفع البطل من الزيف الى الحقيقة .

فان كلا من القسمين ليس بينهما في الظاهر شيء مشترك . صحيح ان الرحلة الى براغ او البيت أمام العالم ، وهي عناصر لا تهضم في رواية رمزية ، قد اختفت من « الغريب » . ولكن لتأمل مرسو في عزلته في جبل شنة ، ومرسو في سجنه في مدينة الجزائر ، فسوف نكتشف تشابها في ايقاع الزيارات التي تسليها ، والفصول التي تثير مشاعرهما ، والوقت غير الوزون الذي يقودهما الى ساعتها الأخيرة . وإذا كان مضيرهما يبدو متباينا جدا لأن احدهما قد ارتكب جريمة كاملة استفاد منها

بيننا الآخر ، وهو قاتل لا موهوب ، اصبح فريسة القضاة ، فيجب ان لا ننسى ان مشكلتها كليها هي مشكلة الموت السعيد-«الغريب» او «الرجل السعيد» تحمل في عنوان فرعي مخطوطة واحدة - وانها حلاها كلاهما بطريقة مظفرة ، وهما يمنحان نفسيهما للعالم ويتحرران من الناس .

ولا نفعل هنا إلا ان نقيم تشابهاً تستطيع دراسة جادة ان تعمقه ، شريطة ان تهتم بالمادة اقل من اهتمامها بطريقة هذين الكتابين. وتقوم «الغريب» لن نكون بذلك الا اكثر وضوحا . ولكن هل هناك حاجة الى القول اخيرا ، ان «الموت السعيد» التي لم ينشرها ، هي وثيقة ، اكثر مما هي عمل ادبي ، وانه يكفيها مجدا ان تتمثل في هذه الوثيقة ، لكي تنضاف الى ملف عبقريته ادلة ايجابية ؟  
أنا نترك للقاريء متعة اكتشافها .

مؤسسة جودة التعليم والتصوير  
هاتف: ٢٧٧١٨٤ - ٢٧٦٥٣٨ • بـكـرـوت • لـبـنـان





حين صدرت هذه الرواية في باريس احتلت بسرعة رأس قائمة أنجح الكتب . ولم يسبق لهذه الرواية أن نشرت من قبل ، وقد استخرجتها زوجة البير كامو من أوراقه . وبالرغم من أن هناك شبهة في الأسماء بين بطلي « الغريب » و « الموت السعيد » فهذه الأخيرة تختلف عن تلك كل الاختلاف ، وموضوعها هو البحث العنيد عن السعادة ، ولو كان ثمن ذلك ارتكاب جريمة . وأحداث الرواية تتناول تجربة شباب يعاني مصاعب كثيرة على صعيد الفقر والممرض والحرب والرحلات ، ويعيش حالات صراع نفسية ليس هناك أبرع من كامو في تصويرها .